

ياسين الغماري

الساعاتي

" صانع الزمن "





ياسين الغماري

روائي تونسي من مواليد سوسة، متحصّل على بكالوريا علوم تجريبيّة سنة 2014 وعلى الاجازة الأساسية بالماليّة بالفرنسيّة سنة 2019، وعلى ماجستير في التحليل المالي بالانجليزية 2021، يتركزّ اهتمامه على الاقتصاد والتنمية المستدامة وهو موضوع بحثه في رسالة الماجستير وسيرته الروائيّة زمن التعب المزمن الصادرة بألمانيا عن دار الدراويش للنشر والترجمة

السّاعاتي، صانع الزّمن

الكتاب: السّاعاتي،صانع الزّمن (خسوف)
المؤلف: ياسين الغُماري
النّاشر: دار الدّراويش للنّشر والتّرجمة- بلوفديف- بلغاريا
Фирма Бадер



العدد: ٨٦٤
الطبعة الأولى: سبتمبر ٢٠٢٣
ص؛ ٢١× ١٤ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنما تعبّر بالضرورة عن آراء ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع في المكتبة الوطنية صوفيا بلغاريا : ٢٠٢٣



(ISBN) (ردمك) الورقي
لوحة وتصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.
الصفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر
فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة
المدير العام: بدر السّويطي

للتواصل:
الدّراويش للنّشر والتّرجمة
daraldarawesh@gmail.com
هاتف: 00491627040179، ص.ب: 87600
شارع تورغوفسكا رقم ٧- ستامبوليسكي- بلوفديف- جمهورية بلغاريا.

السّاعاتي، صانع الزّمن

ياسين الغُماري



©
الدّراويش للنشر والتّرجمة
AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING
W W W . D A R A W E S H . C O M

بلوفديف -جمهورية بلغاريا

Plovdiv-Bulgaria

2023

هذه الرواية محض خيال، وأي تشابه بالواقع فهو مجرّد صدفة

الوقت ماكر، يحلو له أن يبكيك

أحلام مستغانمي

ساعه الحائط، أشدّ الحيوانات الأليفة ضراوةً

أعرف واحدة-من قَبلُ-التهمت ثلاثة أجيال من عائلتي

ماريو كوينتانا

لديّ رغبة دفينة وغير منطوقةٍ لشيء يفوق تفاصيل الحياة

فيرجينيا وولف

(1)

في يوم الأحد، السابع والعشرين من نيسان من سنة ستّ وثمانين وتسع مائة وألف، كان الوقتُ ساكنًا. ترتجف غُرفتي من وسط المبنى. والمبنى يغصّ في غيوم مجاهل مدينة نيس الفرنسيّة. كنتُ أُشاهد كارثة تشيرنوبل. ممّا لا شكَ فيه أن جماجم مسؤولي المحطّة قد تفرقعت إلى أشلاء، والعيون مسحوبة إلى الداخل. إنّها أسوأ طريقة قد يموت بها الإنسان. أن يُعانق مصرعه بحثًا عن المعرفة والكمال. في ذلك الوقت، كنت أقوم ببحث أكاديمي حول المسؤولية الاجتماعيّة للشركات. وحول دور المؤسّسات الماليّة في تمويل المشاريع الّتي من شأنها أن تقود إلى الهلاك، على غرار المشاريع النوويّة. لصُنع عالم أسوأ. وتشيرنوبل واحدة من تلك الكوارث المُموّلة. لا يسعني إلا أن أتخيل كمّ الخسائر البشريّة والماليّة. ناهيك عن الأمراض الفتّاكة الّتي ستظهر في وقتٍ ما، منها السرطان، بيْدَ أنّ السلطات الأوكرانيّة قالت إنّ المنطقة-الّتي انزلقت في بحر الظلمة- قد أصبحت منكوبة. وتمّ إجلاء قاطني المناطق المحيطة بالمفاعل.

خرجت إلى وسط المدينة. أسير في شارع جان مايديسان. مضيتُ أوّلًا لشُرب الشوكولاتة الإيطاليّة السّاخنة في كافيه فيرجنانو. ثمّ تحوّلت إلى

محال الثياب الباهضة. لا أستطيع أن ألجم نزعتي في شراء الثياب الّتي لن أرتديها. كل ما كنت أهتم به هو الشكل.

حاز بحثي درجة كاملة، بل ولاقى قبولًا جيدًا من قبل جميع الدكاتره. الأمر الّذي وضعني موضع حسد من طُلّاب دُفعتي. كُلّما زايدتُ في إظهار السّعادة وجدتني مُتوغّلًا في ممرّاتي المظلمة يومذاك. تنظُرني طالبة فرنسيّة شقراء بشكلٍ مُؤذ. كان من الجليّ أن أشعر بالحقد الّذي تحمله للغُرباء مثلي. أدركتْ أنّني عربيّ القسمات، بيْدَ أنّ خلّاني بالوطن، كانوا يُطلقون عليّ لقب الطلياني كوني لا أحمل شبهًا بالعُروبة.

ينبعث صوتها همسًا:

«هذا العربي القذر قد حصل على درجة ممتازة»

ومع ذاك كنت أكون-من وقت لأخر-مدعاة للتنادر. لا يهمني هراءهم، طالما أنّني لا أهتمّ بما يتناقلونه، عندما أهتمّ سأضطر إلى الضرب على مؤخّراتهم، أو فلتلفظ أفواههم بما شاءت.

شغفي لن ينضبَ زيته، باستثناء حال شُقّت أنفاسي. إذا كانت هُناك حقيقة نبيلة يجب الذّود عنها، فسيكون نجاحي حازمًا وثابتًا. غُبار الزّمن لن يُغيّر من إرادتي شيء إلّا عظمة. لا رغبة لي سوى الظفر بالنجاح بصورة صاعقة. أن أكمل الإجازة والماجستير والدكتوراه. نشوتي القصوى أن أصير أستاذًا جامعيًّا وأن أصل إلى أعلى الرُتَبْ. أن أتقلّد منصبًا مُهمًّا في

أحد البنوك الفرنسيّة الكبرى. وأن أصبح كاتبًا عظيمًا. رغبتي في الحصول على بعض الأمور المشتهاة ليست كما كانت عليه في السنوات الّتي عشت فيها هُنا قبل أن يحدث اختلال في رضاي.

أُوشوش خفية: «لن ينقصني شيء» وللرياح وشاية تكاد أن تُعرّيني.

أُعاني من حالات وحشيّة مُضطربة،

أشعُر فيها بالاشمئزاز المُزمن من كُل شيء وكُل شخص

فيرجينيا وولف

(2)

إلى عيادة الطبيب أصل.

قال لي الطّبيب «تيمور» الّذي أتردّد عليه بشكلٍ منتظم:

«هل مازلتَ تبحث عن الكمال؟»

«وبشدّة»

«الكمال مُؤذ. ضريبة قاسية»

«لا تهمّني العواقب»

«في الرضا سعادة وطمأنينة»

«أرغب بكلّ شيء دون نقصان»

مُشكلة الطّبيب «تيمور»-الّذي أزوره-هي أنّه دائمًا ما ينظر إلى ساعته ويتظاهر بالاستماع إليك، لكنه لا يفعل ذلك. المال همّه الوحيد. يُمكنه منحك ما تُريد من العقاقير المُنوّمة-حتّى لو كان لها تأثير مدمّر-لكن هذا لا يهم، فكل أدوية العقل لها أثر مُخرّب.

ويعمـل بما يُرضي الله، يسـتلّ ورقة. يُدوّن فيهـا عقاقير. انهيار عصبيّ يأخذه بإذن الله.

يمدّها لي مُستخلصًا:

«ميعادنا، سيكون بعد أسبوع»

نظرتُ إلى جواربه ، كانت احداها رمادية، والأخرى لونها مغاير. أنّى له أن يُرتّب نفسي وهو لا يُزاوج بين جواربه.

طـاب لي أن أخبره أنّ النّقاش بينـي وبينه لا يُفضي إلى شيء ولا يُرجى منه نفع. ليس هُناك تحسّن.

اعتقدت أنّها ليست فكرة سديدة.

مشـكلته الثانيـة كانت، أنّـه لا يشرح لك ما الذي تُعـاني منه على وجه التحديـد. كنت أسـأله عـن مرضي، لكنّـه يصمت ويتجاهلنـي. لذا أقرأ إشـعارات العقاقـير الّتي أقتنيها. هـذا لا يكفي. لا بُـدّ لي من البحث بين الكُتـب والمواقـع الطبيّة. أحسـبُ أنّني أقوم بعمل جيّـد في تحقّق مرضي. وأنا مخطئ فيما أعتقد. تعلّمت الكثير من الأشـياء حول كيفيّة التّعامل مع الآثـار الجانبيّة. اضطررت إلى مضغ علكة بالإكسـيليتول كيْلا أترك فمي ناشـفًا. أضع مرهمًا واقيًا على وجهي. كان من المُحتمل أن أصاب بضربة شمس مزدوجة.

في متجر بيع الأدوية، يُبادرني الصيدلي قائلًا :

«فيه الشّفاء»

«أيّ شفاء؟ الأمور تسوء»

يُجيب وينشغل عنّي. « آثار جانبيّة»

أُلقي نظرة على الأدوية فأجدها مُغايرة للتي كنت أستخدمها.

تنصحني صبيّة صيدلانيّة متربّصة بالتخلّي عن هذا الدواء. سأصبح مدمنًا. وسأكسب زيادة في الوزن، رُغم نحافتي. وهو مُثبّط انتقائي لاسترداد السيروتونين يُغيّر المواد الكيميائيّة في الدّماغ. و الباحثون لا يعرفون بعد خطر هذه الأدوية. إنهّم يُريدون بيعها فقط. ومُضادّات الاكتئاب يجب أن تُعطى بعد الحُصول على النّوع القويم من ألجين؟ لكن الأطبّاء يُدوّنونها عن طريق الصُّدفة، لعلّ فيها الشفاء، وكثيرًا ما لا تجدي.

انزلقت للخارج. عندما كنت أسير في الشارع، كان هناك صوت قادم من أبعاد غير معروفة. كان صوت والدي يرنّ في أذني، على أمل أن أعود رجلًا. ثمّة شخص بلا مأوى. يرجو التعاطف. لا أحد يهتمّ به. المشكلة هي أنّي لا أهتزّ لمعاناة البشر. لم أشعر بأدنى شفقة عليه، ومع ذلك فأنا شديد التّأثّر بمعاناة الحيوانات. بلغ بي الإرهاق مداه، فجلست على أحد المقاعد المُصدّعة وكنت فارغًا، شعرت وكأنّني سأنفصل عن جسدي. تكوّمت على وضعيّة الجنين. فكّرت في الطّريقة الّتي سوف أصاب فيها بالإغماء. أغمضت عيناي لئِلّا يُشاهدني المارّة، هذا غباء؟ بالتأكيد، مثل خدعة النّعامة.

وأعود إلى شقّتي. أجلس بلا حراك، على مألوف العادة. وكلّي رغبة أن أملك كل ما في الخارج. أُمنّي النّفس بحدوث شيء ما، لا محال.

على إيقاع المُثابرة أتراقص. بجرأتي فوق منصّة الذكرى الأولى. بدفقة التعب المُستديم. يا مُستقبلي الباهر في المُضِيّ والمُواظَبَة. أبتغي نجاحًا لا يُضاهيه نجاح. أريد أن يكون النّجاح السّاحق أشيائي الدّائمة لا يمكن المساس به. أرقص من جنب وإلى جنبٍ. إلى جنائن ذات ألوان من جمال. وبهجة طازجة ترتقب حصاد التعب.

أفتح النّافذة على أقصاها. مثل شعلة مضيئة في ليلة صاقعة يتنامى توهّجي كُلّما هبّت رياح تلوي رقاب الأشجار.

أخاطب المدينة:

«أرغب بالسّماء»

تُجيب المدينة بصوت مرّ نظير بالتّيه المعهود :

«تكفيك الأرض»

فأماتنُ بجسارة زائفة:

«أن ألمس عليائي»

انهمر المطر عاصفًا.

ليس النّجاح هو سبب السعادة. بل السعادة هي سبب النّجاح
اينشتاين

(3)

بـدت نيـس لطيفة مـع تعاقب الأيّـام. منـذ أن جئت، أدركت بشـدّة اِنتمائي إلى هذا السّـاحل اللازوردي الجميـل. ألغيت انتمائي لوطني الأمّ. بتعلّـة انتهاء صلاحيـة إقامتي على أرضه. وطني مقـبرة الأحلام وتابوت الأحياء، لكن الذنب لم يكن فيه بل في قاطنيه.

واصلت مُتابعة آخر مُسـتجدّات تشيرنوبيل. خلّف الانفجار سحابة شرّيرة من الإشعاع النووي دثّرت سماء أوكرانيا بأكملها وحتى روسيا.

اسـتحوذت عـليّ فكرة مخيفـة ألا وهي هـوس المعرفة الّـذي يقود إلى الهلاك.

انصرفت إلى القسم الآخر من بحث المسؤوليّة الاجتماعيّة للشركات. كل ما يدور في بالي هو كارثة تشيرنوبيل وأجهل السبب.

لم أتحدّث عن وضعي السـيئ وعن صحّتي النفسـيّة لأي شخص لأنّ هـذا سـيحطّ من شـأني. ومع ذلـك، يجب أن يكـون هُناك شـخص ما في حياتي، كما نقل لي الطّبيب تيمور.

في باحة الكليّة، سقطت فضلات الحمام من الأعلى. كادت أن تصيبني لـولا المظلّـة. ثمّة شيء سـحري يحـدث لي. شيء عُدّ بالقـدر ومن صنيع الإرادة. إرادتي الّتـي لـن تُقهـر. ألقيت نظـرة خاطفة على أحد الأسـاتذة التونسـيين وقـد كان يـترأّس مكتبـه. يتحـدّث إلى أبنـاء الوطـن، وطننا المُنكسر والمنكوب.

دخلتُ إلى قاعة المُحاضرة.

نلـتُ درجة ممتازة، أخرى، أنا الآخر. كادت الفتاة الشـقراء أن تموت غُبنًـا. رأيتهـا تُجمّـع أغراضهـا في حالـة هسـتيرية. وانزلقت مـن القاعة. يُمكنني أن أتخيّلها تبكي عبثًا طوال الليل.

النجاح يجعلك مشـغولاً بتحقيقه. وليس صُدفة. يُباغتكَ على حصيلة التعب.

أُظهـر سـعادتي بعينٍ حَريصـة لتَلافِي لطَاخَـةِ الحُزن الّتي من شـأنها أن تغمرني في غفلة منّي.

ذهبت إلى مقهى في أحد الأحياء القديمة بـ«سان بول دي فينس»، مع أصدقاء الكليّة، كانت على غرار مقاهي المدينة العربي بسوسـة. ومن باب الدعابـة ثمّة من قرأت لي راحة يدي وكُـوب قهوتي المُنتهي. أعطتني علمًا أنّني لن أبلغ الثلاثين من عمري. بعد التاسعة والعشرين ظلام وزوال، أي هلاك وموت. كان قدري مُختلفًا عن مصير أصدقائي في الكليّة يومذاك.

ولكن جرحي عميق هذا الأسبوع

أعمق من أن تصدر عنه ولو تنهيدة واحدة

غادة السّمّان

(4)

اليـوم هو أخر يوم مـن أيّام الترقّب-وهذا اليـوم يُلاقيه لهب كارثي- وجـدت نفـسي في لائحة المؤجّلـين. عبثًا ارتفع صـدري وهبط مثل بطن حامل. جعلني الشكّ أسأم لدرجة أنّني أفرغت ما في بطني. شبحًا خائفًا أصبـح وجهـي. الفرحة بشريّة خادعـة. رجمني القـدر في متاهة لا أعرف ماهيّتهـا، لكـنّ هـذه المتاهـة تسـلبني آنئذٍ من نفـسي وتجعلنـي أتقاطر في ذلـك الظلام البعيد. أجهل طريقي داخل هذا الأسـى الخانق. نجح أكثر الأشـخاص حماقة بالكُليّة، وأنا قد تأجّلت. لماذا حقدتُ عليه؟ ولا أدري لماذا أنا؟ إنّي تمزّق اللحظة الواجمة بين الهواء والنّار.

عبثًـا أجرجـر أقدامي مثـل ثعابين تتلـوّى. أدركت لفـترة من الوقت أنّ الأرض تـدور حـولي، على جـري العادة. هالات الصمـت مُغرية حدّ الخسـارة العظمى. ولّيتُ راجعًا خافتًا. بدا هذا اليوم حارًا وألسنة اللهب تُصيـب قـرفي مثل حريـق لا أعـرف مأتاه. هـذا التفكير القاضـم للنّفس جعلني مثل شخص من دُخّان. لا صوت لي ولا صدى.

الحياة تكمن في الجمال. والتوفيق هو امتداد الحياة. أنا اليوم في حالة حداد.

بعـد التحقّـق من ورقتـين، ألفيـتُ أنّ الأسـاتذة لم يتلقّـوا اختباراتي، وأُسندت لي أعداد هزيلة.

كانـت المفاجـأة أنّ بعـض الإداريين تلاعبـوا بأعداد بعـض الطلّاب الميسـورين لابتزازهم، لكنّني لم أكن ميسـور الحال. شـكلي يُوحي بذلك فقط. أنفق كل نقودي على الملابس والعطور والمطاعم، فلا يبقى في حوزتي بنـس واحد. تكمـن المشـكلة في أنّ الطبيب «تيمـور» قد مـرّ عليهم بُغية معرفـة بعض المعلومات عنّي. بما أنّه يـأتي من حين لآخر للطلبة. بجهله، أولاهـم رصاصـة وضعوهـا في قلبي. اتخـذوا ما أنا به ذريعـة لوضعي في زاويـة من ضباب. يُزعزعون مُحاولاتي في الإسـتقرار النّفسي. عندما انفرد بي في أرشيف الطّابق الأرضي سقط بيده على وجهي، فصفعني. فارتفعت يدي ساقطة على وجهه صافعا إيّاه.

قال ولسانه يُرفرف كلسان زوجة أب بياض الثلج:

«سنُخبر الجميع أنّكَ مُجرّد شخص مجنون»

صُراخ مُتّصل وشرّير على غير هدى :

«لا أحد يُصدّق حقيقة تخرج من شخص يتناول مُضادّات الإكتئاب»

مـا عـاد في مقدوري تكويـن جُملة مُتكاملـة لا بالفرنسـيّة ولا بالعربيّة بعد ما قاله. أشـفق على نفسي حين أُهزم. اللوم يقعُ على عاتق الطلبة. من سيُصدّق حفنة من الطلبة؟ سيُناصرون بعضهم البعض ونُطرد نحنُ. كان

لابُدّ لي أن أصمت وأفكّر في حلّ. كانت الأدوية تعبث بتركيزي وتضعف قدرتي على التفكير بشكلٍ منهجي. لم أشعر عبثًا بالضياع والغرق كمثل هذه الفترة المسكونة بالمرارة.

الليل قد أسدل قتامته والأمل أينه؟ القلب تهاوى والأمل أينه؟

مُنهكٌ أنا. غافل إلى حّد كبير. لم أنم مُنذ أيّام. أربع ساعات كحد أقصى. أينما ولّيت وجهي وجدتني في لائحة أولئك الّذين يستميتون الإطاحة بهم. أشعر أنّني في حالة حلم. أنا حُلم قد كسروه. هذه الحالة الهوجاء الّتي كنتُ فيها من قبل-والآن عدتُ إليها-لأنّ كل شيء غير واقعي، كأنّني مُتهاوتًا. مُتّخم بالسكون والحُزن والدهشة. الصّوت الّذي يُجاورني محض مُعربِد. لا أستطيع أن أفهم ما يُقال لي. ولا يُمكنني التركيز لفترة طويلة مع المُتكلّم. أتعبُ سريعًا. مأساتي خاطفة ومُتماوجة. لم أتوقّف عن ضرب الأرض بقدمي، عساني أجد الوجود. وأين الوجود؟

مهما فعلت، فإنّ أحدهم سيحاول رسم الحدود لك

أنطونيو سكارميتا

(5)

نفسي بحاجة لا توصف إلى فهم، قدرًا هائلًا من الفهم. أحور وأدور بين معرفة المزيد وعدم فهم أي شيء فأضيع، وبين حسبي إلى هذا الحد الرهيب وأفهم شيئًا هزيلًا فأجد نفسي. أتشبّث بملء قاعدتي لأدرك ماهيّة الوضوح، أو للوصول إلى نقطة أجد فيها عزائي. ولا شكّ أنّ كل ما أفكّر فيه هو أنّني أخجل من فشلي ونفسي.

يُمسك الطّبيب «تيمور» القلم والأجندة ويُخاطبني:

«ما أمركَ؟»

«أشعر بالكآبة»

«هل تواظب على أوقات تناول الأدوية الخاصّة بك»

«بكلّ تدليل»

«ما أمركَ؟»

«تأجّلت نتيجتي»

«أعد اجتياز اختباراتك في دورة التدارك»

«لا شغف لي»

«هذا تشاؤم كئيب منك»

«أفصحُ لكَ عن مكنوني كي أجد مخرجًا من هذا الشّعور الّذي وضعتني فيه»

غمغم كما لو كان يتحدّث إلى شخص يقف في واجهته. كان من الجلي أنّني لست الوحيد الّذي يُعاني من اختلال نفسي. مُشكلته الثالثة كانت مع جواربه غير المُتناسقة الّتي لا يتفطّن إلى مُفارقة ألوانها وهذا ما يبعث على الإستيهام أنّ زوجته–هذا إذا كان لديه زوجة من الأساس–لا تهتمّ بهندامه الخاص ولا ريب أنّها تقضي أمسياتها مع عشيقها لإرضاء عرى الزّوجة المُهملة الّتي لا تحصل على حقوقها، وفي غداة غد، تُواجه صعوبات هائلة في تمييز زوجها من عشيقها وهي تنظر إليه بنصف إغفاءة.

قرأت مقالة أنّ أولئك الّذين يرتدون جوارب غير مُتوافقة وعجيبة الألوان هم أغزر إبداعًا من أقرانهم. أحسبُ أنّ هذا "التيمور" أغباهم.

«كلّه بسببكَ»

«دعني أتحدّث إلى عميد الكلية بشأن ما حدث»

صرختُ في وجهه بشيء من البطش :

«كلّا. لا مزيد من الأشخاص. حسبي فضائح»

«لا أحد يقع ضحيّة الاحتيال دون التورّط مع المُتحيّل»

«في ماذا اشتركتُ معهم؟»

«في الصمت»

«أنتَ تُبرّرُ جريمتك الُمتمثّلة في إفشاء السرّ الطُبّي»

أحدّ البصر في أجزاء وجهي كما لو كان سيُسدّد لي لكمات. كانت مُشكلته الرابعة أنّه يُفشي السرّ الطبّي بسهولة.

ما عاد يعنيني أمركَ» غمغم باللغة الإسبانيّة، ظنًا أنّني لم أفهمه.»

لا يعرف أنّني تعلّمت الإسبانيّة في المدرسة الثانوية، أنا الأخر. ولا أفهم سوى القليل منها.

تخلّيت عن استغبائي الدَارج معه وواجهته:

«أشباهك لا يعنون بأمرنا. يروننا أوراقًا نقديّة. أنت غير كفؤ لُمساعدة النّاس. أنتَ أنتَ أنتَ»

ولُذتُ بالصّمت في انتظار ردّة فعله.

نظر إليّ ودحرج ابتسامة على شفتيه استحالت إلى حالة من الارتباك وردّ على إدّعائي :

«المرضى على بيّنة بما تقوله ومع ذلك يأتون إلينا»

خاطبته ببسالة:

«لقد كشفت السر الطبّي الّذي قادني إلى الفشل»

أضفت بعد شيء من الهُدوء المُعلن :

«في غنى عن خدماتك»

ألقى الطّبيب «تيمور» الأجندة جانبًا وقفز من كرسيّه على قدميه. كان فارع القامة. رياضيّ الجسم. مُنبسط الكتفين وشاحب الخدّين. وخبيث العينين. وثبت أنا الأخر من على الأريكة، والحسّ بالغثيان يطغى عليّ. عيناي المتعبتان قابلت عينيه الماكرتين. انهارت أرقدامي على الأريكة بنظرة منه، والتعب يضغط على أعصابي. كنتُ متعبًا لأنّي ألحظ ما يُحيطُني ممّا يجعلني ذلك خائبًا جدًّا.

صرخ «تيمور» بصراخ عالٍ فكُسِرَت أجزاء من وجهي وتوقّف تنفّسي المحموم.

ثمّ دنا منّي وتزيَّ بزيٍّ الأُبوّة ويقول بجنتلمانية :

«كل ما نقوم به محضِ دجل. مع السّلامة يا عزيزي»

الدموع تصلّبت في محاجري. قُلت شجيّ النّفس :

«أي تيه هذا الّذي أنا فيه»

فأجابت المدينة الّتي استحالت إلى ملاهي رُعب والنّاس الواجفة في جوفها تتسابق فيما بينها :

«لا تستحقّ شيء»

تُمطر.

قُلت:

«سأكون كل شيء»

فأجابت المدينة الّتي استحالت إلى ملاهي رُعب والنّاس الواجفة في جوفها تتسابق فيما بينها :

«لا تستحقّ شيء»

تُمطر.

ترامت بداخلي كراهيّة مُضاعفة للبشريّة جمعاء. مصحوبًا بكلّ العُقد الّتي لن تنفصل عنّي. هذه الكراهيّة بإتّساع الأرض أنظر من خلالها كما ينبغي إلى العالم. وفي غير توافق مع العالم الذّي سار مقلوبًا على رأسه. كل ما يحدث بأعماقي في تبدّل جهنّمي إلى فقدان كوني إنسانًا. من المدى الصامت تكوّن الزبد الأسود على شكل إستغاثة غير مسموعة. وكان توقّعًا. أن يكون المُتلقّي أصمًّا. فلا شيء يستجيب إلى مأساتي الكُبرى. أو عذابي الفردي. لم أعد أمتلك مكنة على التخاطب.

كان العالم كثيرًا، وكنتُ أنا وحدي

بثينة العيسى

(6)

في يوم -لا يُميّز أيّ شيء عن أيّ شيء آخر-غير السّواد المُتورّم، كانت في الثلاثينيات من عمرها يومذاك. بعد ثلاث محاولات فاشلة، أزمعت «سيلفيا بلاث»-وبلا تراجع-التّخلّص من نفسها، وأرادت هذه المرّة أن تمرَ بثبات، دون أن يتمّ إغاثتها. كانت قد شرّعت نوافذ البيت على آخرها وأمطرت طفلاها بقبلات أخيرة منطفئة عقب إطعامهما وترك ما يقوم بسداد رمقهما في الثلاّجة للسّاعات القليلة القادمة، ثمّ عمدت إلى المطبخ وتهالكت على عضادة الباب. انثالت الدّموع من عينيها مدرارة والحُلكة تكتنفها من جُلّ الثغرات الّتي أفضت إلى ما آلت إليها حالها الفوريّة. ثمّ قامت بحشو منافذ المطبخ بالمناشف المُبلّلة لئِلاّ ينبجس الموت الحتميّ إلى طفليها. فتحت قارورة الغاز على آخرها وجعلت الحبوب المنومة تغمرها باختناق مرير.

كانت الأبجديّة واجمة، ساكنة، مُنزوية، شاحبة. الأبجديّة تحتضر. بينما النبض يُغادرها، يتركها، ينفد منها، الموت يسحقها، هذا الموت كان مدويًّا، مُتمرّدًا، مُنتفضًا. تحولت الحياة في ذلك الوقت إلى أبعاد عميقة ومظلمة لا نهاية لها. حسّ « سيلفيا» بالاستسلام والانهيار غمد في أغوار أعماقها ما يستحيل وصفه.

من المُستحيل وصف شُعورها. شعورها بالانهيار.

وبحسّ جنائزي وبقلب مليء باليأس، دسّـت رأسـها في الفرن، وساد صمـت القبور، فيـما الغاز يخترقها وينفـذ إليها ويقبض بثلاثـين عامًا من التّدهور المسـتمرّ وينقلها بمنـأى عن العالم الّذي استماتت في البُعاد عنه. وهذا العالم جعل شعورها طيّ النّسيان بمجرّد أن قبض على روحها.

تلقّى الدّكتور النّفسيّ-الّذي صرف لها مُضادّات الاكتئاب قبل بضعة أيّـام مـن أن تُوافيهـا المنيّة-الملامـة، مع العلـم أن طبيبها العـام منعها من تعاطيهـا، وتوقّع الأخـير أنّ هاته الأقراص قد تُسيء التصرّف في وضعها الهشّ. وستُعمّق من سـوء حالها. الأمر الذي أدّى إلى رغبة مُبالغ فيها في قتل نفسـها. لو وجدت الاحتواء والدعم، لما قتلت نفسـها. الحياة ليست مُنصفة لمن يعيشها بشفافيّة أطفال.

ترامـى إلى ذاكـرتي الطّريقـة الكئيبة الّتـي أنهت بهـا «فرجينيا وولف» حياتها على التّوالي.

عقب سـنوات حافلة بالأمجاد الأدبيّة المتواتـرة، حلّت بها الإخفاقات والنّكسـات المُتلاحقة. فـآل بها ذلك بأن تُصاب بالهـوس الاكتئابي. حالة مُشـابهة لتلـك الّتي مـرّت بها من قبـل. كانت تعـرف ضمنًا أنّها سـتظلّ عـلى قيْد الجُنـون. وكان لا بُدّ من ذلك، حيث نشـأت تُرهف السّـمع إلى أصوات مشـبوهة وهسـتيريّة. تكدّر صفـو تركيزها. بدأت تفقد نفسـها رويـدًا، رويدًا..حتّـى اليوم الّـذي قررت فيه التخلّي عـن كل ما تبقّى من

عالمهـا. كانت قد كتبت خطاب وداع مُضطرب لزوجها. في ذلك، تُعلِمه أنّها لم تعد قادرة على سـيْر الأُمـور. وأدركت أنّ الأصوات الضالة تنحني نحو أذنيها. كانت على يقين من أنّها ستفسـح المجال للسعادة لزوجها من خـلال القيام بهذا الفعل، وانتهى الأمر منـذ أن فقدت قدرتها على القراءة والكتابـة. ما أن أنهـت خطاب انتحارها إلى زوجهـا، تهادت بثقل فكرها وارتدت معطفها.

ذهبـت إلى النهـر المجـاور لمنزلها وحدّقـت فيه بقلب يفيـض باليأس. لاحت لها السّـماء حالكة السّواد بيْدَ أنّها كانت في وضح النّهار. ثمّ ملأت جيوبها بالحجارة. توغّلت داخل مياه النّهر وبدأت ترتجف.

أغرقت نفسها دُون تردّد، وتوفيت عن عمر يناهز التاسعة والخمسين.

تقول لي فيرجينيا:

«يُمكنكَ أن تكون كلّ شيء»

أجيبها بشيء من العجز :

«عقلي هو الحاجز بيني وبين النجاح»

تُقاطع «سيلفيا» مُحاورتنا :

«الإحسـاس الدّائم بالنّهاية كشـف موهبتي...حـاول أن تتعايش مع النّهايات»

أصمـتُ كدُميـة ذات جمجمـة مثقوبة وأوتـار عصبية ممزقـة. في ذلك الصبـاح، غمـرني الضياع واليـأس والتحطّم، أردت أن أطلب المسـاعدة وأشرح أنّني لست على ما يرام، أنّني أنهار.

مـن أعـلى رأسي المُتراخي-ترتفع أعمـدة رفيعة-تتـمادى منها شرائط فشـلي. كان لـدى كل شـخص في الكُليّة شـيئًا مـن القُدرة عـلى معرفة ما أخفيـه من إخفاق. فبحثت عن مـشرط لقطع الشرائط العموديّة. وبدأت في قطعهـا واحـدة تلـو الأخرى. حـين دلف شـخص مـا إلى دورة المياه، توقّف الزّمن مفتوح العينين من هذا المشهد السّاكن والمرعب، وندّت عنه صرخـة مدويّة، وخلافًا لما أرجوه لم أكن أقطع الشرائط وإنّما أحاول قصّ إصبعي.

وحين يكتشف النّاس أنّي قد فقدت عقلي رغم تكتّم أمّي فإنّهم سيقنعونها بوضعي في مصحّة نفسيّة حتّى أُشفى.

سيلفيا بلاث

(7)

من وجهة نظري، الاكتئاب ما هو سوى كلمات أرادت أن تطلق وتُحلّق في عنان السّماء، لكنّها بقيت مُقفلة في الذهن، أن تُقلّ مرضًا عقليًّا مفاده أن تكون وسط أُناسًا أصحّاء يتحدّثون عن أشياء ليس لكَ أن تفهمها، إنّه يعني قول كلمات لن تُفهم. الاكتئاب يُماثل الإنسان الشريف إلى أطراف الحُدود، فهو لا يعي في أيّ أرض يُريد أن يعيش وما الّذي لا يزال يعيش من أجله. هذا ما لم تستطع والدتي إدراكه، وعلى قناعة تامّة. جاءت بعد أيّام قليلة، في الوقت الّذي كنتُ فيه على بيّنة من الحقائق المُروّعة الّتي تنتوي صنيعها وهذا ما حزّ في نفسي. كانت مُتّشحة بالسّكينة والهياج معًا. ثمّ ساد وُجومًا مُعربًا عن قرار. أخذت مُستقرّها بالقُرب من الطّبيب «توماس». كان الأكثر رجحانًا أن تنفجر تبكي على تيهي وسوف تتبلّل مآقيها، لكن لامُبالتها نقلت رسالة مفادها أنها ليست عابئة بما يحدث لأولئك الّذين يقربونها. أنشأت تُخاطبه بفرنسيّة تحتوي على الكثير من الغنج. لم تفد إلى فرنسا لنجدتي. وإنّما تأمل مُعاهدة لتركي في إحدى المشافي حتّى أتعافى من الإكتئاب، البقيّة الباقية من عُمري، وكل ما يؤلمني يكتنفه حجاب الغربة. وكل من سيسألها عنّي سترد له قائلة: «ابني

يدرس في أرقى كليّات في نيس.» ولكن نظراتها تقول: «دماغه لا يشـتغل كما ينبغي. صار ذا عقل ملتوٍ».

أعطتني ابتسـامة ملؤها التخلّي. ناسـية كل ما عداها. نوبة قلق تنتابها بشـأني كل عدّة سنوات، ولن يؤذيها ذلك. تتوارى مثل رصاصة والخجل المُطلـق مُرتسـمًا بجـلاء في أجـزاء وجهها. ذهبت يـدي اليُمنـى إلى ذلك المـكان الخالي من الوجـود. إنّ خطايا الآباء والأجـداد يدفع أثمانها الأبناء والأحفاد.

فى مستشفى الطب النّفسيّ لا يأتينا المرضى، بل ضحاياهم

جودى بلانكو

(8)

ما كان الوُلوج إلى المستشفى أسوأ ما في الوجود، بل كان بالأحرى فنّ الهجر. في مرحلة ما، تكون بُيوتنا بدايات مُتفرّعة لمعيشة فاشلة، وفي أوقات أخرى تكون ملاجئ النّهايات عودة أنيقة لكل ما يربطنا بأرض الواقع. ومع ذلك كنت أؤمن بأنّ قُلوبنا وعُقولنا في حاجة إلى الهدم وإعادة الإنشاء، تمامًا كما يجب أن تكون منازلنا.

«احرص على عدم الدخول في مناوشات ومعارك، لأنّ هؤلاء الأطبّاء والُمرّضات سيتحمّلون سخافتك، وما كان يُمكن أن تفعله أسرتكَ.» واصلت الحياة بعد دستة من الأسابيع وأشهر من سماع هذه العبارة، كانت بمثابة إستقبال لي من السّاعاتي، والّذي بدوره، أصبح، في وقت لاحق، صديقًا والّذي أُساكنه الغرفة، ويُعاني من اضطراب الشّخصيّة الُمضادّة للمُجتمع، الكلّ يخافه إلّايَ.

بمُرور الوقت، المصحّة النّفسيّة صارت ملجئًا. وفي خلال هذا المدى الزمني، كان يجب أن أُبقي نفسي مُتماسكة بغض النّظر عمّا حدث. أستطيع أن أقول إنّني وجدتُ منزلًا مُستبعدًا ومَنسيًا أفراده يكرهون أن يكونوا في عالم، ليسوا مُرحّب بهم فيه، ولم يعد مُتأكّدًا من وجوده. يزدرون من حياة

مُتوحّشة. جعلهم العُقلاء في معزل، أُولئك الّذين يعيشون بشكلٍ أفضل. لم يكن من في المصحة هو الشخص الأكثر سوءًا في العالم ولكنه أكثر شخص مُنفر في العالم، لم يكن لأيّهم سِمات قبيحة، لكنهم وُلدوا جميعًا في منزل حيث تحدث كل الأشياء البغيضة. هذا ما أراد «توماس» معرفته، أراد التحقّق من ماضينا، أيظنّني غبيًّا، بما يكفي، إلى نقطة الكشف؟

تشيرعقارب السّاعة إلى السّابعة صباحًا. هُناك حداد حول قلبي يجب التغلّب عليه بأي وسيلة. كانت الآثار الجانبيّة للعقاقير، تعبث بملكاتي الذهنيّة، مثل خُيوط من الدخان تدخل وتخرج من رأسي. أتقلّب على جانبي الأيمن. أستدعي ذكرى خلتْ، أيّام كُنتُ مُعافًا. يتعاظم شعوري بعناء الآني وضيق الأتي. أتفرّس بسرير السّاعاتي وقد كان مُرتّبًا، فهو يُحافظ على وقته الدَارج لرياضته. أتنهّد بعمق وأُحملق في خواء صبيحتي. كان التّعب لي بالمرصاد، ولم يكن لديّ الكثير من الحافز لترك سريري، رُبّما أحتاج إلى شخص يُشير نحوي دلو من الماء البارد. هذا سيفي بالضّرورة.

يرن صوت الممرضة «كاثرين» بشكلٍ استفزازي، فأركل الفراغ وأسقط على الأرض. لقد حاولت في كثير من الأحيان إضعاف معنويّاتها، لكنّ عملي المثالي الّذي أنويه لم يتكلّل بالنّجاح.

تصيحُ في وجهي داهشة :

«توقّف عن الأمور الصبيانيّة، لقد أتممت عامك العشرين»

تاه منّي، كان مساء أمس عيد ميلادي، هُناك أشياء مُحبطة حول أعياد

ميـلادي، ليس لـديّ أي فكرة عمّا أصبحت عليه، وهـذا يجعلني مُقيدًا بما كنتُ عليه من قبل.

أردّ قائلًا :

«التعب لا يعرف فئة مُعيّنة، وأنتِ لستِ معصومة منه»

«سـتتعب لا محالـة إذا كنتَ لا تعنى بشـأنك، فلـن يُعطيك أحد أدنى رعاية»

ثم تابعت، بينما كانت تُزوّدني بحبّة دواء :

«إذا كنتَ تعرف كم مللتكَ»

«بناءً على ما أراه، أصبح الخارج عصيًّا ويُثير اشمئزازي إلى أقصى حد من الحالات»

«لن يرفضك أحد، إذا لم تسمح له بذلك»

«أيّ شيء يُثير اهتمامكِ ما أن تطأ قدميكِ عتبات المغادرة من هُنا؟»

فصمتت لردحٌ من الزّمن دون أن تزيغ بنظرها عنّي وقالت :

«أن أعود وأقوم بعملي»

قلت:

«هـل يخضـع المـرضى حقًّـا لاختبـارات استكشـافيّة مثل تلـك الّتي يعرضونها علينا في أفلام الرعب»

فأجابت بسخرية:

«من الجيّد أن تعرف أنّكَ لستَ من الصنف الّذي نودُّ العمل عليه»

«فشلت حتّى في هذا»

«كفاكَ عتهًا»

«سأكتشف دفائنكم مثلما تكشفون دفائني»

«سيكُون الطّبيب «توماس» مستاءً جدًّا لسماع هذا»

«ليس لديّ دليل قطعيّ»

ما من سبيل، لاسيّما في الصباح، إلى إثارة حنقها

شعرت بهُبوط مُفاجئ وحاد في المزاج، فغيّرت مجرى الحديث:

«ماذا أفعل عندما أفقد رغبتي في الحياة مرّة أخرى؟»

«استمرّ فيها فحسب»

لم تتحقّق من أني قد تناولتُ الحبّة بالفعل. تظاهرت بابتلاعها وبصقتها ما أن توارت عن عيني.

لأسباب أعتقد أنّها منطقيّة، تقرّر منّي مُنذُ يومان أن أتوقّف عن تناول دوائـي، لم تكن آثاره الجانبيّة حميدة، حيث عانيت من اضطرابات في المشي فكنت أرتطم بالحوائط، ناهيك عن الصّداع المُستمرّ والقيء والارتجاف والصّعقات الكهربائيّـة المفاجئـة والغبـش والجّفـاف ومشـقة التبـول

وكوابيس حالكة وصباحات قاتمة وغيرها من الآثار الجانبيّة المُدمّرة، كلها مُزعجة ومُحرجة. كنت فزعًا، على الدّوام، من أن تشرع هذياناتي المؤتلفة من جديد، فتنسرّب كلماتي عن تأثيرات الأدوية الّتي أستخدمها، كنتُ أعلم ضمنيًّا أنّني يجب أن أتحدّث عن مثل هذه الأشياء لنفسي فقط، لكنّني لم أستطع السيطرة على نفسي، فالدواء يشبه شخصًا يتلاعب بي بمحض إرادتي، ويُجبر عقلي على النطق بما لا يوصف.

كانت حديقة المُستشفى شاسعة وصاقعة، كنُدفة ثلجيّة ناعمة لا تنصهر، وهي مُزدانة أيضًا بالأشجار والأرائك الخشبيّة. كان هُناك طريق تعلوه طبقة كثيفة من الشجر الخالية من الروح. يتناهى إلى مسامعي خشخشات غريبة للمرضى فأختنق وأتأوّه، كما لو أنّ يدًا خبيثة أمسكت برقبي وعصرتها، فجعلت أسير بتراخ كسفينة تائهة في أغوار المُحيطات، بدون دليل، ليس ثمّة من يسوسها أَو يُخبرها أين الدّرب الصّائبة، كان كل ما يُمكنها فعله هو الإبحار والمتابعة بشكلٍ مُتماسك دُون أدنى قدر من المعلومات أين يُفضي طريقها أو أي شيء يطمر لها الغيب، بلا مُحركات وبلا أشرعة، تحتضنها الأمواج وتقودها كما شاءت. كسفينة مُهمّشة، قضى مالكها نحبه مُخلّفًا رُكّابها لأفواه التّيه والجحيم القادم، وكلّ محطّة أصل إليها أجدها تعُجّ بالمطبّات، والموت النّسبيّ، وفي كلّ مرّة أجتاز فيها هذا الموت دون أن يُمسس جسدي بسوء وإنّما عقلي كان يطاله النتوءات وأقسامه يُوافيها الموت. أعلم أنّني لن أكون أبدًا ما أريد، لكنّ بصيص أمل كان عالقًا في قلبي.

اِســترعى انتباهي غرائبيّة بعض المرضى، وجُنونهم المُطلق، الّذي شـقّ ثنيّتـه مُتخارج عن حُدود العقل ولم يعد ذا صلة بالمنطق. تعترضُني وجوه حزينة، ومُنهكة، ومنسـيّة، وجوه كالحة استغنى أهاليها عنها. وترامى إلى مسـامعي جـدلًا مُحتدمًا يدور بـين ثلاثة مرضى، أحدهـم كان يلعب دور الأب الصـارم، والآخـر دور الابـن الغاضب، والآخـر دور زوجة الأب المتهوّرة. كان واضحًا وجليًّا أنّهم يُعانون من انهيارات عصبيّة عنيفة.

جُرحي أكثر عُمقًا من أن أواجه،
وأكثر نزفًا من أن أجرؤ على فك الضمّادات
غادة السمان

(9)

دلفتُ إلى غُرفة، مُضاءة بشكلٍ خافت، الأخشاب مُنتشبة في المدفأة، لأوّل مرّة لاحظت أنّ الطبيب «توماس» في وقت مبكر من عقده الخامس، وبيلغ طوله على الأقل خمسة أقدام، نظرت إليه، ورفعت حاجبيّ خاملًا، جلستُ حابسًا أنفاسي، ضربتني لفحةٍ من الدفء. كُنتُ أعجّ بالأمزجة السّوداويّة والإحساسات المُتّسمة بالإنهاك والتهالك، في كلّ مرّة أدخل فيها غرفة «توماس» تُعاودني ذكرى زيارتي البكر للمُعالج النّفسيّ «تيمور»، لم تكن جيّدة، خالجني إحساس بالفزع وقتذاك، لنفترض بأنّي ما كُنتُ أملك خيار ثانٍ سوى طلب المُساعدة، وإلاّ فإنّي سأفقد أعصابي، فساقتني المقادير إلى أحد المخبولين، الّذين بدورهم، في حاجة إلى سيطرة نفسيّة. سألني عن سبب مجيئي إليه وأي شيء أريده من هذا المجيء، وعبثًا نظر لي نظرة غريبة، استفزازيّة. ما زلت أتذكّر كيف قُلت بهياج شديد، في حين كُنتُ أُصعّد يدي الرّاعشة والمُتعرّقة، وأنّني لا أعرف ذريعة قُدومي، وما أدركه هو أنّني أعاني من إرهاق مُزمن وصُداع شديد طوال الوقت. كان غير مُحترف وخالٍ من التّواصل ولا يعرف قراءة مرضاه، وعلى قدر كبير من العجرفة. ثبتَ اعتقادي فجأة أنّني أتحدّث

إلى جدار من الفُولاذ. استنفدت خياري الوحيد والمرض أصبح أكبر من اللازم. هذا ما حدث ما السّـاعاتي على التّوالي، جعله طبيبه النّفسي يشـعر بأنّه لا شيء ولم يكن يسـتمع إليه باهتمام، فتارة يتركه يتحدّث إلى الفراغ، وينشـغل بالمُكالمة الهاتفيّة، وطورًا يشيح بوجهه وينشغل عنه بالحاسوب، وعبثًـا يُسـكته مُعلنًا انتهاء الوقت. ثمّ شرع لـه أدوية وصرفه معها، وقبل ذلك قال له أن يتّصل به إذا كان هناك شيء يسـتحقّ الاتّصال به، وانسـلّ السّـاعاتي خائبًا منبوذًا، وهاتفه بشـأن شيء يتعلّق بالـدّواء، لكنّه لم يجب. كان قد ناشـد للحصول عـلى المعونة والإصغاء والإرشـاد وما لاقى منه إلاّ الازدراء واللامبالاة والسـخرية، وهذا مـا زاد عليه الضلال والظّلام. وأزمـع آنئذٍ على أن يأتلف المرض ويتعايـش معه كما عاش بالفعل معه في حين كانت نوبات الهيجان الشّـديد تندلع بداخلـه من وقت لآخر. وبرِمَ أطبّاء النّفس برمّتهم، لم يطلب المُساعدة مرّة أخرى، ومع ذلك، زار طبيبًا عامًـا صرف لـه الليثيوم. كان في قرارة نفسـه أنّه سـيُطنب في اطلاعه عن عـدم قدرتـه عـلى النّـوم والأكل والتّفكير المُنتظـم، وعن سـاعات النّهار التي قضاها يُحدّق في السّـقف. المُشكلة الرئيسيّة للأمراض العقليّة هي أن تكـون في حال هش بشـكلٍ دائـم للغاية. وعلى ضوء ذلـك، علّل لي أحد النُـزلاء في المُستشـفى سـبب وجوده هنـا، حيث كتب رسـالة قصيرة إلى طبيبـة الأعصاب الّتي زارها، وضّح من خلالها، أنّها عاهرة وقذرة كبيرة. أعطتـه مُضادًّا للاكتئاب ليبقى في الفراش طـوال حياته، وأنّ عقاقيرها لا تقـلّ خداعًا عنهـا، لذلك تلقّى منها عدّة مكالمـات ولم يرد، وفجأة جاءته

رسـالة قالت له فيها أنّه رجل مجنون والكثير من المقاذع التي لم يسـمع بها من ذي قبل، وبشكلٍ غير مُتوقّع وجد نفسه هَهُنا بحُجّة أنّه يُشكّل خطرًا على محيطه.

أخـبرني أحـد أقـارب الأسرة ذات مـرّة عـن الفـترة الّتـي قضاهـا في مستشـفى الرازي. كان الطبيب المُعالـج يُهينه في مُعظم الأوقات. بحماقة، يخـرج لسـانه، يصفه بالجنون، إلى أن يُثير حنـق قريبي، ويجعله على مكيال من الوحشية، ويحقنه بإبرة مُخدّرة.

كان «تومـاس»، يعـرض لي، في كلّ مـرّة، صورًا مختلفة ويسـألني عمّا يخطـر ببـالي متى أراهـا، وأخبرته أنّ مـا يفعله يثير اشـمئزازي ولا يهمّني ما يفعله وما يفكّر فيه. اعتقدت أنّه سـيفعل الشّيء نفسـه هذه المرّة لكنّني كُنت مُخطئًا تمامًا.

وتشتّت كلماته عبثًا:

«أنتَ شخص غير إجتماعي»

«ليس كل النّاس يستحقّون المعرفة»

ما قاله يصعد إلى رأسي ، ممّا أفقدني توازني. «اشرح لي علاقتك بالأمّ؟ ما كان عنكما؟»

«كانت تُحبّني»

وباسترخاء عضلي خلعتُ عنّي نظّاراتي. مكثت أُطالعه بعيون غامضة

تحمـل ضغينـة. كان فكـري يسترسـل سـاخطًا. كأنّني في مـكان أجوف وتعيـس، تُصـادف فيـه الأهـوال طريقها نحـوي. لا يُمكننـي أن أصف الحالـة المُظلمة الّتي تحوّلتُ إليها. والأرجـح أنّ ذلك عائد لخوفي من فتح قلبـي في سـابقة لم أعدهـا. انفجر بداخـلي اختناق لا حُدود لـه. اقترح أن يُسـبر أغواري مُسـتخدمًا التّنويـم الإيحائيّ، شـعرت بالانكماش لخاطرة أنّي سـأكون خاضعًا لمثل هذه الأشـياء. لم يُحذف من الذّاكرة، حذفًا تامًّا، جلسـات الصعقـات الكهربـاء، الّتي أُجـبر بعض المرضى عـلى إجرائها. أسـتطيع أن أشـعر بحُلكة اسـتنزافهم. هذا لا يختلف عـن ذلك. بصقت بملء قرفي. وقفت بقامتي المُتوسّـطة وسرتُ باتّجاه الباب، فكان مُوصدًا. سـحب «تومـاس» من جيبه جهـاز التّحكّـم عن بعد ولم يـبرح موضعه، فأنشأت أصيح ناشدًا المُغادرة.

قال على وقع الضجيج:

«لم يحن الوقت بعد للرحيل. فإن طاب لك، سـنُراقب بعضنا البعض حتّى نهاية الوقت»

داهمتني قُشـعريرة غريبة وبدأت أنضح عرقًا. سحابة سوداء طفت في رأسي. كان جسـدي المُتهالك يرتدّ. سقطت على الأريكة ، وأُطلقت منّي بقايـا الصمود. انحسر نفسي الواهـن. وكان العالم يطوف من حولي وهذا العـالم يجلبنـي إلا في أوقات الضيق. بطني تئنّ بعُنف. يسـتحيل الأنين إلى

قعقعة. وتستحيل القعقعة إلى خناجر. أتحامل على وجعي وأنهض. فأرتدّ ثانية وأسـقط. لم أجد إلى ذلك سـبيلًا. أدركني حسّ أنّ كلّ شيء يتداعى بداخلي.

تسـتمر الهزيمـة. وبلـغ شـعوري بالمـرارة حـدًّا لا يُطـاق، نظرت إلى «توماس» وقالت عينيه :

«أستطيع أن أرى الظلام من عينيك»

بقرفي، بسُؤمي، أُبدي مُقاومة. كنت غريقًا في بركة من العرق.

ويتضخّم صوته:

«لستَ كما يحلو لي»

وفي خِلال خِضم مُعاناتي، تخرج كلماتي مُتقطّعة. كان صوتي خليطًا بين اللاّمبالاة والنُّعاس :

«شكرًا لك أيّها الطّبيب. لقد شُفيتُ تمامًا بقولك هذا»

أطنب في كلامه بينما يُشير يده إلى أصص الورد :

«الآثار الإنسـحابيّة جليّة، ارجع إلى أدويتك أو سـنضطر إلى إجبارك على القيام بذلك»

لا يُمكنـه أن يشـعر بـألم أو تعـب الآخرين لأنـه يتمتّع بصحّة نفسـيّة جيّـدة، وينضح حيويّة وطاقة. ويحيا حيـاة مُريحة. في الواقع، عندما أكون معه لا أشـعر بالكراهية أو الاسـتياء تجاهه، لكن هذه المشاعر تنضح متى غادرتُ مكتبه.

إنّ كثيرًا من الاضطرابات جاءت نتيجة الصّدمات العنيفة
الّتي تعجز عن تحمّلها النّفس
فرويد

(10)

بعد أسبوع، انتشرت سحابة سوداء وتلاشت السّماء تحت غُيوم مُظلمة.

كاشفني «توماس» أنّ ما أُعاني منه-وفقًا للأعراض-يندرج تحت مُسمّى اضطراب ما بعد الصّدمة النّفسيّة، وهذا أدّى إلى إصابتي-لاحقًا- بمُتلازمة التّعب المُزمن، وأنّ كل ما خبرته وما أعيشه ما هو إلّا رد فعل سوي لهذه الصّدمة، وهي مُحاولتي للبقاء على قيد الحياة. شرح لي أسباب الصّدمة وأعراضها كلون من ألوان التثقيف وتبسيط صُورة المرض. وإذا كنت أنشد الشّفاء فمن المُستوجب أن أفتح له قلبي فتحًا كاملًا. وينبغي التخلّص من طاقتي المكبوتة.

قال وقد تركّز بصره نحوي :

لا بُدّ أنّك تعرّضت لحادث مؤسف» حكّ ذقنه.»

لا شيء ممّا سبق» أجبت »

«عندما تكذب، تُشيح بوجهك عن المُتّصل»

كلامه لا يخلو من منطق سديد. ابتسمت ولم أُحر جوابًا، ولأوّل مرّة في حياتي، لاحظني شخص ما بمثل هذه الدقّة الفائقة. أعلم ضمنًا أنّه كلّما زاد البوح، كُلّما كان من المُمكن التغلب على جدار الذّاكرة، ومن الأكثر رجحانًا أن أنسى وأمضي قدمًا وأنا لم أعد أرغب في اختراق أي طبيب لجداري. فالاعتراف مُدمّر وغامض مثل الأفعال. كنت أشعر بالإنهاك التّام من هذا الكون. كل ما أريده من العالم الخارجي أن يتركني بكل أشكاله. إنّه لأمر يرثى له. جسدي غالبًا ما يكون مُتعبًا، كما أنّي لا أريد مُغادرة المصحّة أو التواصل مع الأشخاص خارجها، وأنّي في مأمن أكثر من أي مكان آخر في العالم، ومع ذلك، كان هُناك شيء بداخلي يصرخ مُستنتجًا: «أنتَ على حق في أن تعيش حياتك».

كان يُحادثني بصوت فيه شيء من التحوّط. «ما هو سبب كوابيسك إذن؟»

«بصنيع العقاقير الّتي تُعطيني إيّاها »

«الدّواء الذي تتناوله يعمل على منع حدوث هذه الكوابيس»

«ترتّب عنه تسوّس أسناني والتهاب اللثة»

وفي ضوء ما أخبرني به طبيب الأسنان-الّذي في زيّه الأزرق-فإنّ تناول الأدوية النفسيّة أدّى إلى جفاف بالفم نتيجة تأثيرها على الغدد اللعابيّة، ممّا زاد من معدّل البكتيريا. ترتّب عن ذلك لسوء الحظ سحب

عصب أربعة أسـنان وتلبيسها. أسـتطيع أن أقول كذلك إنّ مينا أسناني- هـذه الطبقـة الأكثـر صلابة في جسـم الإنسـان وغـير القابلـة للبناء-قد أصبحت هشّـة بعـض الشيء ذلـك من تصاعـد الحمضيات مـن بطني. وأسـتخدم الآن معجـون أسـنان خاصّ-غنـيّ بالكالسـيوم والفسـفور وهيدروكسـيلاباتيت-للتخفيف من حساسـيّة الأسـنان. كما أرقدُ بطقم شـفّاف مطلي بتركيز عالٍ مـن الفلوريدا. وما عتّـم الطبيب «توماس» أن يدافع عن هذه الأدوية الصّاعقة.

سـادنا شيء من الصّمت. لم يسـتطع الوصـول إلى نتيجة مُحتملة معي. انفجـر بداخـلي يقين-بعـد الفترة الزمنيّـة في المصحّـة-أنّ «توماس» كان مُنشـقًّا قليلًا عن أطباء العقل الّذين كانوا معتوهين. ولّد في نفسي انطباعًا جيّدًا.

«أعطني بضعة أيّام أو أسابيع للتّفكير»

لكَ ما تشاء» هزّ رأسه بثقة حتّى يجعلني أعتاد الأمر بسهولة. »

وعـلى إنارة خافتة، قـرأت في كتاب علم النّفس-الّـذي أعطاه لي-أنّ الأعراض النّفسـيّة والجسـديّة لاضطـراب الكرب التّـالي للصّدمة تظهر في غُضون أسـابيع أو أشـهر أو سنوات من مُعايشـة الحدث، حيث يُعاني المُصاب من خُطوب في التركيز والحفظ وعدم القدرة على النّوم، كما يُعاني من كوابيس ليليّة وشـعور بالمُباغتة والهلع والاكتئـاب والتّعب، والعديد

مـن الأعراض الجسـديّة الّتي تؤثّر سـلبًا عـلى قدرته على القيام بأنشـطته اليوميّـة، فيتفاقـم غيابـه عن الحياة، ناهيـك عن نظره الضئيل للمسـتقبل الّـذي يراه قد خـلا، ويتطوّر الأمر بـه إلى اضطرابات شـخصيّة فُصاميّة، فيرى ويستمع إلى أشياء غير موجودة.

وإذا صَفا لكَ من زمانكَ واحدٌ،

فهو المُراد وعِش بذاكَ الواحدِ

ابن الفارض

(11)

أنـا أُحـب الثلـج، على الرغم مـن أنّنـي لم أره في بلدي فيما سـبق وفيما تلا. شـبيه بالقُطن، شـاهدته يهطـل راذاذٌ في الأفلام، يهطـل رقاقات على الأسـقف، المباني والشّوارع، يملأ المكان بجمال أبيض ناصع ونقاء مُشعّ. كان الثلج شـيئًا رائعًا، يقيني، يُمكن أن ينقـذ حياة ضائعة، وله أن يُخفّف مـن ضيـق الأرواح المُنكسرة. في جـو لطيف مُحبّب وعطـوف، وحينما كُنّا مُفترشان ثلج الأرض، نُسرّح أبصارنا بعناية إلى سماء اِستشرت فيها غُيوم قاتمة بشـكلٍ رهيب، بدأت نُدف الثلج تسـقط ببطء مـن مبنى المصحّة في حين اندفعت ريح خافتة تكسـو الحديقة. لم يسـبق لي في حياتي أن خبرت هذا الإحساس بالرّاحة.

هاجمنـي السّـاعاتي بسُـؤاله إذا كُنـت على تواصـل مع رفـاق الوطن، فأجبته بازدراء :

«أيُقرّ الوطن بالرّفاق؟ »

قال بشيء من المرارة المُستترة و كانت عيناه مثبتتين نحوي :

«عيْن الصّواب»

قلـتُ له إنّنا نفقـد الأصدقاء لكثير مـن الأعذار، الصـدق أوّلهم. كما نجد أنّ مُعظم المناطق المُحيطة بنا لا تُشـجّعنا وتجعلنا لا نفعل شـيئًا، ولن يكون هناك شيء سـهل. تسعى لإخطارنا بانحدار لا نهاية له، لنشعر بثقة مُتعسّرة للجهود الكبيرة الّتي بذلناها. وبمجرّد أن يتكلّل عملنا بالنّجاح، تجـفّ عيون الحـب لتنمو جذور الكراهية. لن يرضى عنك سـوى قلّة من الأشخاص، وعليك أن تنجح على أي حال. فلاشيء أقسى من أن يهزمك فأس الفشل.

وجمت وقلتُ بعد هُنيهة :

«أن تملأك الأسرة بالعقد»

ماتنَ السّاعاتي موقفي ذاك:

«ما الأمر كذلك، الأسرة هي أحد الأشياء الجيّدة في الحياة»

هدرت في سريرتي :

«لا يمكنك أن تفهمني ما دمت لم تمر بموقفي»

قاطع هواجسي قائلًا :

«إذا كُنـتَ تُعـاني مـن الخسـارة، فيجـب عليك أن تـذوّق مزيـدًا من الخسارة»

أعقب بعد إن جرِضَ بِريقهِ:

«لقد فقدت عائلتي الأصليّة في حادث مروري»

هدرت في سريرتي :

«أنا الآن أفهم سُلوكك المُعادي للمُجتمع»

قُلتُ جهراً :

«كلانا يُعاني من الفقد، فقد العائلة وفقد الوطن »

رمقني بابتسامة بطيئة وقاطعني بينما ضحكاته تعلو:

«ومرارة الرّفاق»

وفي طرفة عين، أحاط بنا شيء من السُبات، وتفكّرنا في ذكرى الماضي المسمومة. رأيت حياتي كقلعة رمليّة. حبّة إثر حبّة تراكمت مسرّاتي. وبصُورة غير مُتوقّعة، أتى المرض، وفجّر جبروته في قلعتي، الّتي ادّعت الحاجة إلى تشييدها لسنوات بالغة الطُولِ. تهالكت أجزاء قلعتي كحُلم ضبابيّ استحال إلى كابوس حقيقي. غير مرّة، أسخط من مصيري. أين أنا من كل ذلك. إذا كان القدر يعني الله. من أنا حتى أتمرد على الله؟

غمم السّاعاتي بصوت خفيض :

«أُخلّص إلى التساؤل عن مصيرنا»

قلت له ودماغي مُتقلّصة تقريبًا :

«سنُطحن»

كانت الحياة مفقودة في موطني وكذلك كانت الصّداقة.

الصّداقـة، لم تكن قائمة في وطني، فمنهم من يتعثّر في طريقك فتمدّ له يـد العون، وآخرون دورهـم أن يكون عقبة حتـى تخرجهم عن طريقك. كل شخص في روايتك يجيئ صفحة أو بضع صفحات، ويختفي دوره إلى أن ينتهي وجوده بخذلان قلمي، ويتلاشي دوره لاحقاً ويغدو نسيًّا منسيًّا مـع قُدوم شـخصيّات أخـرى، غريب يعود كـما كان قبل بضعة أسـطر، تتقاطع مسـاراتكم في الصفحات، فيكون اللقاء بشكلٍ سطحي، وسُلبت جماليـات المعاني السّـابقة ولم يبقَ منها إلّا جمود الغربـاء، ويُنمحى انمحاء فظيعًا بعبارة تُشرع بـــ «كان».

يتضخّم صوت الطبيعة بإعصار هائج مُنتقم.

أدخُـلا. أضحى الجو قبيحًا للغاية في الخارج» صاحت «كاثرين» دون أن تطْرِفَ لها عيْن. »

وفي مسيرنا إلى الداخل أعربت واللسان مسحوب للدّاخل :

«أشتهي طبيخ بلادنا»

«كذلك»

قفلت راجعًا وابتسـامة طفرت على ثغري. يُطابقني في ما أقوله وما لا أقوله وما لن أقوله. هذا ما يجعلني مُرتاحًا في الحالات الفرديّة الّتي أعتزم دائـمًا قولها. ما يروقني كذلك في شـخصه أنّه عليـم بكلّ الأحاجي. كائن يمطُـرُ في بحر المعرفة. مـن ذي قبل وإلى الآن، لم يفهمنـي أحد، أعتقد أنّ

المعضلة تكمن في نفسي. منشأ السّبب منّي. صدمات تتالت أخرجتني عن طوري. في أحايين كثيرة أقول كلمات مشفّرة. أحب أن أتناقش معه. إنه لأمر مُدهش أن نعثر على أرضيّة تفاهم مع شخص لم نعرفه بعد. في حياتي لم أكن أؤمن بالعائلة بقدر ما صرتُ أؤمن بالغُرباء.

لقد كنتُ مرهقًا، إلى مدى أن تقرّر منّي الانتفاع من لحظة هواني وقول حقيقة، لم أكن، من ذي سبق، أتطلّع إلى إقرارها، أثناء لقيانه هناك حدث سحري يحتوي حلقة شعورية ملغّزة، لذلك أكون في مجال الريب وأشك في خلقته، أكان حلمًا؟ حينما أكون وإيّاه تغزوني مشاعر انشقاقية وأنّني في عالم خرافي لا ينتهي أبدًا. لفرط ما تروقني رفقته، ولوجوده نشوة نهايات لا تنتهي، ممّا أتموضع في علياء أبخرة اليقظة المراد الاستقرار فيها.

مرّة، حين أخطأت في شخصه، غضب منّي شرّ غضب وهجر صحبتي لأسابيع بعد ذلك. كان يتحاشى النّظر في مجال تواجدي واعتبرني من المغضوب عليهم. تركت له رسالة ناقلًا إيّاه أنّه عندما يرتكب أحد أطفاله المستقبليين شيئًا خاطئًا، فإنّه سيُسامحه لاحقًا. وأنا أيضًا ابنه، وأستحق أن يغفر لي. لقد كان غاضبًا منّي لأسابيع. فهو أبي الّذي تبنّاني. كان أبي المفقود. إذا تركني، سأكون الطفل المتبنّى / المهجور / الخاسر. وهو أسوأ شيء يمكن للإنسان أن يحدث له. ل بي المآل إلى معدل ضربات قلب غير متوازن. كنت أتنفّس بشكلٍ سيء للغاية. كما لو كنت سأترك هذا العالم. أدركتُ أنّ حنقه تُجاهي قد أخذ من عميقه مأخذ الوجوم. وأنا عن نفسي لم أقترف في حقّه خطأً من شأنه أن يخلق فجوة

بيننـا. وبفائض أناة حـاذرت في ألفاظي. على الرُغم مـن أنّني، وليس من أدنى الإحتمالات، أن أتوجّه إليه بكلمة تسوء أو تخدش شخصه الجميل. بالـكاد رباطنا فيـه فيض تقدير ما يود. وإذا كان سـيظلّ على غضبه لزمنٍ أطول سوف أُشاركه في المُصالحة. بنفس تعجّ بالتهالك ناديته.

ردّ وقد كان مُكفهرّ الوجه :

«ما مُبتغاكَ؟»

«الدردشة»

«كلّا»

«أيّها السّاعاتي كُنّا رفقة»

«قلتُ كلّا»

«كما تشاء»

اعترتنـي جميع المشـاعر المنكوبة. أخـذتُ اعتياد أن يكون في شـخصه وفرة اللين. دعمه الّذي يُعزّي غُربتي ومرضي النّفسي. ما أكاد أن أستبدله بمضادّات الإكتئاب، فأتشرّبه بين لحظة الغضب والسـكينة. أسـتحضره فأهدأ. أمّا الآن، فأنا أرتجف من صديق لم أعهده آنفًا، من صديق فيه حنق وصـدّ. مـن صديق خالٍ مـن الحُنُوّ والعطـف، من صديـق أكاد لا أعرفه تقريبًـا. العـالم فيـه من حـدّة التعامل حدْ ليـس إثره حدْ. وبـدءًا من ذلك

الحدّ يحدث ألّا أشعر بالرغبة. ضاعف عذابي الماضي بعذابي الحالي، وزايد عذابي الحالي بعذابي الآتي.

كلّ حالات الصدق يُصاحبها إحساس بالغدر.

كيف قسى على نفسي إذا كان يعلم أنّني أؤمن به أعظم من نفسي؟ لماذا أضرم شعلة الغضب بقداسة صداقتنا، إذا كان على يقين أنّني مُقترنٌ به بموجب مُقدّس لا تدنيس فيه مُسمّى الصداقة؟ رفقتنا تذوي تحتَ القساوة المُعلنة، تئنُّ تحت الجمر المُحترق، رفقتنا ترتقب الصُلح والمودّة واللطف لتتفتّح مرّة أخرى. حار المرض النّفسي بي وأين التّلاقي وما أقسى التّجافي وما أطيب التّداني.

من المستوجب أن أحيطه بمعرفة أنّي في حالة إكتئاب. وأنّنا نتعالج في مصحّة نفسيّة. كما أنّي مُغترب، شأني شأنه، كلانا يعيش اغتراب. ولهذا السبب كُنت في احتياج إلى دردشة شخص ما، وأرمي بمنطق مُعاكس: ليس إلى شخص ما، بل إلى شخص مُحدّد، كان هو.

لا أريد أن أكون وحدي رفقة عقلي. ضائعٌ أنا. كبحر لم تطأه قدم. كأرض لم ينبت بها حُب. مثل كون لم يثبت على حقيقة الخلق. مثل سماء جوفاء النُجوم.

العالم مكان فظيع، وأنا أعمل على إبراز النّور الّذي ارتأيته في في صداقتنا على المنحى الكثيف والأخير من الأشياء. إنّني أستقرّ على صدق الثبات في زمنِ الإهتزازات.

سقطت يدي تهتزّ في الفضاء وكان لساني ضاجًّا :

«الصداقـة تعنـي التسـامح. أنتَ ما أنـتَ فيه، ينبغـي ألّا ترصد غيابي وأنتَ تفتعل البُعاد عنّي»

خلتُ أنّه يتهيّأ، كان ليصخب. وجدت أنّه كان ليصمت.

غـضّ الطرف عـن زلّاتي، وكنتُ أعمى عن زلّاته. تعامينا عن عيوب بعضنا البعض من أجل استمرار الصداقة.

ما مِن إهانةٍ أَكثر قسوةً تُوجّهها لإنسانٍ
من رفضِك التصديق بأنّه يُعاني
بافيزي

(12)

استنشـقت الشمس الناريّة آخر أنفاسـها المُتدفّقة، وانحسرت مخالبها الشرّيـرة، غمرهـا الخـوف والضيـق، ومحقتهـا الهزيمـة. يندفـع صُداعي النّصفـي ويمتـدّ، والتّعب يقذفني ويركلني، لفـترة طويلة، لدغات باردة تُحطّـم عظامـي، تمائم طـرد العين والحسـد المُلتصقـة بجـدار غُرفتي، تمدّ لسـانها بسُـأم وبلادة، لا أدري علاّم نفعها، ولا أعرف لمـاذا احتفظت بها حتّى الآن.

كانت والدتي تقوم بترداد:

«التّميمة سوف تقينا»

كان الثلج قد بدأ في التّساقط.

«العاصفة الثلجيّة قادمة»

كاثرين» تقـول ذلك وتجعلني أتّخذ خُطوات سريعـة واثقة. قوّس هرّ المستشـفى قوائمـه الخفيتـين تأهّبًا للجـري وركض مثل قذيفـة لا تُدرك

وجهتها. كان يستثير في دخيلتي شتّى المخاوف متى كنت أسير في الممر ذو المظهر الغريب وأُطالعه بنظرات جوفاء من أيّما مفاد.

حالما طأت قدماي القاعة الّتي يتراكم فيها المرضى، اعترضني شخص شاهرًا لسانه في وجه رجل عجوز قاتم القسمات. ويُلقيني بنظرات ساخطة وحمقاء. كل سِمةٍ من سمات الرصانة جُرّدت منه. لم استمرئ هذا الوضع على الإطلاق، كانت الدقائق القليلة الأولى مُرعبة والجو لا يستقرّ على حال. سويعات تترى دون انقطاع. كنت أقرع الطّاولة بإصبعي مللًا، لردحٌ من الزّمن. أشاهد ساعة الحائط من آن لآخر. يتكدّس برأسي إعياء شديد وأنا أستمع إلى حفيف أغصان الأشجار وضجيج العاصفة الّتي كادت تقلب المصحّة رأسًا على عقب. لاحظتُ أنّ الساعاتي يُراقبني من بعيد.

كان أحد المرضى يتنقّل بيننا ويُطالعنا بشكلٍ مُثير للريبة. يتحدّث بلهجة شديدة: « لم أعد أتحمّل هذا». كان صوته مصحوب بصرير أسنانه. تتصارخ كلماتي في وجهه، دون أن أرمش جفناي، مُنبأً إيّاه بمعسول الكلام، أنّنا جميعًا اكتفينا من هذا، وأضيف إلى هذا وعلى نحوٍ راعب، بأنّي سأطلع «كاثرين» بنوبته، وبالتّأكيد ستُخبر الطّبيب «توماس» وسوف يُضخّم من جرعة الدواء، وسيستحيل إلى حشرة مُقزّزة يتمّ سحقها دون صعوبة. فيشيح كُتلة الدُّهون عنّي وينكمش في الزّاوية. يحدجني بنظرة ماكرة مُقطّبًا حاجبيه .نافرًا خُصلات شعره الأماميّة. فاتحًا فمه كقرد. يهزّ كتفيه بامتعاض. ويهمس عبثًا بإيمان راسخ: « لقد اكتفيتُ من هذا»

لا ريب أنّه سيصرخ، طوال الليل، بلا انقطاع، إلى درجة هستيريّة. ولا شكّ أنّ العالم الخارجي أساء مُعاملته إلى نُقطة أنّه لن يُفارق المصحّة مُنذ دخوله إليها. ربّما يعيش البعض منّا في المصحّة بشكلٍ أفضل ممّا لو كان يعيش في حُضن العالم. كنتُ أتطلّع أن أمحو الناس العقلاء من حياتي، وهذا ما أتيت على فعله. لا أريد مزيدا من الأشخاص العقلاء. بالطّبع كل شخص يعاني من اضطرابات نفسيّة من حين إلى آخر، أو من عاهات نفسية مستديمة، وهذا أمر مؤكد تمامًا. ولكن العاقل هو من يختلط بالناس دون أن يشعر بشيئ يثقل كاهله ويجثو على قلبه ويمتص الرحيق من عقله.

دخلتُ في تلاسن مع شخص ما. متى يُساء إليّ، لا يُمكنني الرد. كانت أوجاع رأسي تمنعني من الرد وتجعلني مُتبلّدًا ومُتجاهلًا. ذلك أنّ والدي، في صغري، كان يصفعني ويذلّني كلّما دافعت عن نفسي في مُواجهة من يسيء لي. أستحضر عُنفه وعجزي وأجدني دائمًا في موقف لا يقلّ عن ذلك. خاطبني الشخص بصوت أجش وأرعن كغول شرّير خرج من توّه من حكاية خُرافيّة كما خرج السّاعاتي من حلقة الزمن لغوثي. كان بقامته الفارعة يحيل بيننا وكان عين الصواب. في غفلة، شبّ شجار عنيف بين هذا وذاك، سعى فيها أحدهم إلى جزّ رقاب الموجودين. ونُسيَ أمري. حلّت زوبعة من الهستيريا. نظرتُ إلى السّاعاتي والّذي بدوره ظلّ يُطالعني وكان عليه أمارات الاستياء، ثمّ سحبني خطفًا.

وتهبّ العواصف مثل شلّال مائج.

كان ياما كان في قادم الأيّام فوجئت بصوت أجش من الخلف:

«أيسوءكَ أن نتقارع؟»

إِسْتَولى على ذراعي ينطوي على العَدَاوَة. يثور كنافورة صامتة. جرجرني بتهيّب غريب والأمر كما تُجرّ أغنام العيد. لم تتزحزح نظراته الشزراء عنّي، تتضارب في رأسي، بارود مُشتعل. كبست أصابعه المُتيبّسة على فقرات رقبتي. حشرجة أنفاسي السّاخنة آخذة في السُمُوق. ومُهتاج الأعصاب زجّ بي خارج القاعة في بشاعة، وتحت أنظار المرضى المُرتقبين الخسيسة. الغثيان آخذ منّي مأخذَهُ. كلّ بوصة في جسدي ترتجّ. أسناني وجلة تصطكّ. دُرتُ بعيني وكانت أنظار المرضى المُرتقبين الخسيسة شامتة. الافواه تُقهقه. الأصوات مُسترابة ومُتراخية. أذوي في الممرّ. أشرقت السّماء في حين كان النُور يتضاءل والظّلام كان يُضيء. نزلت أمطار مُتوحّشة. ومتى أخبرتُ السّاعاتي عن هذا، لم يستطع تحمّله ولَكمَ هذا الغُول الشّرّير كيْلا يطعن طريقي ثانية.

تمنّي الصداقة عمل سريع

لكن الصداقة نفسها ثمرة بطيئة

أرسطو

(13)

دلفت غُرفتي رفقة الساعاتي وخوى صدري من الصّرخات، أنخطفُ في بؤرة إكتئاب من حُلكتها بات لا قعر لها، لم أكن أعلم أبدًا أنّني سأنتهي في مُستشـفى للأمراض العقليّة، أنا الّذي مزّقه العالم إلى أشـلاء. وجدتني وحـدي، مُحطّمًا، ومُنصهـرًا في الظـلام. أكفكـف دُموعـي المُتواريـة عن الساعاتي. أنا محاط بالمجهول، بلا أم، بلا أب، وهذا المجهول يُخيفني أكثر، إلى أقصى حد، الحدّ الّذي تجاوزته وكبرت أثناءه سنوات ضوئيّة لا حصر لهـا، مُنذ أن غادرتني نفسي تنبض بالحيـاة و عادت إليّ نفسي مريضة حتّى الموت. أحمل وجه مُكفهرّ مليء بالفشل.

أخذ القلق يكتسح دماغي. ولم يظلّ من متنفّس لحنقي سوى أن أفجّر طاقتي قائلًا:

«أتعلم؟، هُناك وقت ما، تُخيّر فيه أن تُغيّر اِسـمك و الفرار عن موطئ قدمك»

«على أي حال، لا تقلق يا عزيزي. الجميع سيموتون يومًا ما. الأمر لا يستحقّ ما ذكرت»

«كلّ يوم أحصل على المزيد من الأسباب للبقاء بمعزل عن النّاس»

«أنت أفضل منهم جميعًا»

شعرتُ بالإطراء.

«على كلّ، ما رأيك بشجار اليوم؟»

«فُوجئت حقًّا! للعجوز قدرة على الشّجار»

«ونحن نشعر بالهرم في قمّة شبابنا»

«لا تزال شابًّا وبصحّة جيّدة»

«وهذا جرّاء العقاقير. أتناول مُخدّرًا بالكُحول لتهدئة القلق في رأسي»

«ستُشفى عمّا قريب»

«أنا لا أعرف حتّى ماذا ينبغي لي أن أفعل. أشعر بكسر رهيب في رأسي»

تُثلج براكين مُتوهّجة..تُثلج بشراسة وعلى غير دأبها. وعلى غير دأبها. وبعد توالي السّاعات، وجدتني في حالة تيقّظ، أشاهد السّقف، أصغي لريح مُوفى ديسمبر. لست أدري كم من الوقت قطعت وأنا على هذا الحال، لا أفكّر في شيء، كنت أنظر فحسب. فغرقت في موجة من الركود والبلادة. كان السّاعاتي غريق في أحلام تُنسج بصنيع الدّواء.

وابتدأت الهواجس تشقُّ طريقها إلى ذهني.

باشر الفجر بوصال السّحاب والضّباب.

هدأت العاصفة.

كانت تباشير الصَبيحة تلوح شيئا فشيئا. جرجرت جسدي المُرهق إلى النّافـذة فـإذ بي أجد الهرّ يحوم بين مقاعد الحديقة بفخر، فجعلت أحسـده على الطّاقة الهائلة الّتي يحوزها للتحرّك.

عُدت إلى سريري. ففوجئت بـ السّاعاتي قد استيقظ.

باغتني قائلًا من فوره:

«هل ما زلتَ تُعاني من الصُداع؟»

«كلّا، لكنّي أنظر إلى الجُدران وأشـعر بالضّعف الشّـديد كما كُنت من قبل عندما اسـتخدمت مُضادّات الاكتئاب، أبقـى في السّرير وألقي نظرة طويلة على الجدران، تدوم إلى ساعات»

آمل أن يتغيّر شيء» قال»

وإذا لم يتغيّر شيء؟» أجبت »

«غيّر طريقة تفكيرك»

أخلص إلى التساؤل:

«أولئك الّذين يُعانون من مرض عقلي، أيذهبون إلى الجحيم؟»

أجاب:

«كلّا، لا أعتقد ذلك»

غيّرت نصاب الحديث قائلًا:

«راودني حُلم غريب»

«أكان حُلمًا جميلًا؟»

«لا أستطيع أبدًا أن أحلم بحُلم جميل كما لو كُنت في عالم آخر من الهُراء، أريد أن أتقيّأ وأصرخ، النّاس ينامون للحُصول على قسط من الراحة، وأنا أنام لأستيقظ في حال أسوأ»

بصُورة عفويّة والعُيون جوفاء، انفجرت بداخلي حاجة قُصوى، تحثّني لإفشاء أساي. شرحت للسّاعاتي بكلمات علقت في حلقي، كيف أرغب في الدراسة والعمل والكتابة من الصّباح إلى المساء ولا يُمكنني فعل ذلك. أنا لست مثل الآخرين. النّاس في الخارج أقوياء، ولا يتعبون أبدًا. لا أعرف كيف يجدون القُوة. كما أنّني أعاني من آلام الظهر على الدّوام.

«لا أحد يُساعدنا، هل تعرف ذلك؟ لا أقارب ولا أصدقاء»

قال وقد فتح عينيه على اتّساعهما:

«المُساعدة غير مُجدية. عليكَ أن تُساعد نفسك»

«لكنّني في حاجة إلى الحُب والدّعم»

«لا أحد يُقدّم مثل هذه الأشياء مجّانًا»

«حتّى أنت؟»

«سأعطيكَ إيّاها مجّانًا»

أخبرني لاحقًا، على الرغم من أنّني لم أسأله من ذي قبل، أنّ زوجته نصحته بدُخول مصحّة نفسيّة، زيادة على ذلك لا تزوره إلاّ لمامًا. ما كان يجدر به أن يضع قدمه في دائرة الزواج. هذا الأمر دمّر دماغه بكل المقاييس.

لفرادته، تنبهّت أنّه رجل له كبرياؤه الخاصّ. بفائض المُصادفة. هناك بريق في أجزاء وجهه. بريق ينفجر بإكسير الحياة. لو اخترقت ما في بواطنه لوجدت أنّه لم يكن راغبًا حتّى في إلقاء السّلام. قادته تجارب الفقد إلى نشاف آبار عاطفته. خبِرَ فواجع فخرج من دوام الحُب. قوّمت هزّاته وعزّزت ثوابته. بريق عينيه يقول: «كمائن مُفجعة خبرناها خبّئناها في مكائن حسابيّة قصيّة الشفاعة». أخذ الحُب مأخذ الفنّ فأخذ الصّدمة مأخذ التوبة. كان قضيّة إنسان، قلم، أدب. قسرًا، تجرّع نيكوتين فُراق خالد. ومع ذلك ظلّ يمتلك حسًّا مركزيًّا في كيفيّة التواصل والتعبير الرقيق. في معزل عن محدودية الأحاسيس. كان ثابتا، لطيفًا، ظريفًا. وأنا كنت منطفئا، خامدًا، باهتًا جنائزيًّا. على عجل بالموت. تساءلت في سريرتي: «ما الّذي يصنع رجل كهذا في هكذا مكان؟» كذاك الّذي يشترك بواقع الأدب. لا يخصّه أحدًا سواه. ما كان من أحد، بل لنفسه. طليقًا كحُلم. ما حلّ به خطأ ومكانه الحالي فداحة. مصقول بالتنازل.

بُعـث من رحم المـرارة. ابن التجارب ووليـد الأدب. بين ذاك وذا راودني شـعور عميق وقـوي بأنّه شـخصيّة روائيّـة أظلّت طريقها بـين الكلمات والسـطور والصفحـات، إلى أن أضحـت خارج النّص وفـرّت من براثن الكاتـب. كان من رواية وكُنت كاتبًا من حدس يُبصر بفطرته. عشـوائي هـذا الرّجل. انفصالًا شـهمًا. قاموسـه المُكابرة. يـترك في الرّائي جُرحًا لا يلتئم. من كان له مكنة لمجالسته مرّة فريدة ولم يحظَ بلقيانه ثانية. يُسرطنك بسـطوة سرمديّة. يُلقيك في مرمى التّعب. يُسبّب نوبة لحظيّة تستحيل إلى خيبـة أبديّـة. يُربكك في تضليـل ينفجر. تتوسّـم فيه ضياعـك. تُنيله من حياتـك وقتًا فيأخذ عُمرًا. يمتصّ كثيرك على غير قليلكَ، على غير قياس ظنونـك. في طابـور ضحايا الزمـن تتقصّف أوراقـك. كان صدمة كونيّة تزجّـك في متاعـب مُتّصلة بـدار الفناء. كان هـزّة عاطفيّـة قاضية. رجلٌ مـن مطر. رجـلٌ من كبرياء. في سـنّ التخلّي. لا يسـقط. يجعلـك تتوه في رصانة ابتسامة جارفة. يُعزّز نفسك إلى حد شعور الهلاك به. بعد مرآه، لا تعرف ماذا تريد بعد الآن. يُنسـيك من كُنته قبل مُلاقاته. يُنسيك توقيتك وذاكرتـك وذكراك. كان مُصادفة لا تُنسـى، لا تُمّحى. ورطة عُمر. وزائر تنتظـره مدى الأبـد. كان مُقابلة حظ وضربة قلب. مُكافـأة الوقت. أنيق الإحتـمالات ومُهيب المُصادفات. نكالًا بك يتركك تُبدي مُحاولة الوصال من جديد. في حضرته، تخسر ذاتك شيئًا فشيئًا. كما تفرّ الحياة من قبضتك، تفرّ حواسـك من براثينك. بمقدار ما تكون ممتلئًا بمُشاهدته، تجدك مُجوّفًا إلى حـدّ عدم الوجـود. نصب ناظريه، يطول انقطاعك عن نفسـك. كان

رجـلًا عصيّـا وأبيّ النوال. تتشـهّى عـدم حُدوثه في حياتـك وفي الآن ذاته تحمـد القدير على حُدوثه. عزاءك المُفرد في الموت. كونه سـيقتفي أثرك في النّوم. كان قائدًا في مُعسـكر لن تطأه الحياة. نفسـه مزار الضالين. كان قيْدَ نفسه. صوته ذا نبرة بزُحام فُراق مُفجع يبعث على اللهفة والأبد.

مُستاء أجمع انشطراتي. أخمّن في تغيير الديانة. هذا ما أعتقده. مُتفحّصًا تحطيمي سأتذكّر دائمًا ما وقعت فيه. ثمّ واجف القلب أتلمّس طريقي من عقيـدة إلى عقيدة عسـاني أجد هروبًا ممّا ابتليت بـه في التفكير. هذا الشيء البديع. مُطرق الرّأس، وفي اندفاعي الشّديد أمضي بخفّة، أتضرّع المغفرة، لأوّل مـرّة، نصب ناظريّ الإمام المسـتنير، والبابـا العليم، والكاهن التّقي وجميـع الحمقـى الّذين كُنت أتخفّى عنهم. أولئـك الّذين يحتقرون تنوّع ما وراء الأشـياء. تفـرح وجوههم بما أتيتُ على التفكير به ويشـعرون برضا النّفس. يتمثّل اشـمئزازهم لي بالنّظرات. كل العُيوب يُبصرونها في نفسي وعُيبوهم عنها مُتوارية. أيّهم سيُدينني بالجُرم الأكبر؟ ثمّ سأحدّثهم، مهما كنـتُ صامتًا، عن نزعتي بأن أكون في غنى عـن المُحرّمات. وإذا اقتضت الـضّرورة فلن أخذ أيّ مذهب مأخـذ الاعتناق النّهائيّ. ولن أبحث أكثر ممّا بحثت. فلن يكن لتعبي مُسـتقرًّا. فلا شيء من شـأنه أن يُنيلني طُمأنينة مُطلقـة. ولا طائفـة تمحو معصيّتي. سأشـيح بوجهي عنهـم. ألا يكفيني عقـلي المكـروب؟ ولا شيء غـير مـا قُلت. ليسـت بي رغبـة في الحياة على المـوت ولا الموت على كاهل الحياة. فجأة، وجدتني لا أعرفني. أنا لسـتُ كما اعتدت أن أكون. سُـخطي بازغًـا. الخضوع الّذي يعتمد على الوجود

الغامـض. وعـلى عاتقي طبقات من الخطايا. أتقـاذر إلى أدنى أعماقي الّتي لم أتطـرّق إليهـا فيما سـبق وفيما تلا. وفي ظـلال الرّغبـات الرّاقدة أغترف مـن طبق الخسّـة وأرتاع. صوب التحرّر والسّـعي للخـلاص من روحي الرّاكـدة أغـرق ولا أموت..مُنطلقًا كالسّـهم أغـرق ولا أموت. أركض بـين دوائر النّار المُحترقة. رأيت الجزع والتزعزع. زُغت عن دربي الخاصّ وأيّ فضيلة خلّفتها؟ انقطع التّفكير السويّ عن عقلي وانقطع كلامي عن حُنجرتي وانقطعت عن نفسي. أنفاسًـا عميقة أخذتها أكثر من أيّ أنفاس مضت. أنا من بدأ في طريق طويل من التحقّق والانقطاع عن الأسـباب. شاحب مثل الكمثرى النحيلة والهامدة. بينما بُذور المُحرّمات تنبت وتعلو وتُمسي باسقة كشجرة زقّوم تُدمّر كل من يقترب من ثمارها. تعضّ واحدًا تلـو الآخـر ولا تشـعر بالرضا عمّا لديـك. كان من المُرجّـح أن أبلغ العالم العُلـوي بزيف ألوانه لكنّني وصلت إلى العالم السـفلي بـكل حقيقته. وفي مثـواي الأخـير سأغتسـل في حمّام مـن بُـركان. أنصهـر وأتجدّد..أنصهر وأتجدّد.

أطفو فوق ضباب الوهم. لم أتعلّق بأحد مثل ما تعلّقت به. انقشـعت أوهامـي. كل شيء كـذب. تتجـلّى لي الـرؤى. حواسي مُلتبسـة. ألا ليتها كانـت مُتصلّبـة خالية من المـذاق والإدراك والانجراف نحـو ما يُوقظ في أعـماق الذّات. لم أعد في سـلام مع نفسي. لسـتُ متأكدًا ممّـا تبقّى منّي. لا يمكنني الاسـتمرار في هذه الهشاشـة لفـترة أطول ممّا تحمّلتـه. نحو إنكار الشُـعور ننتهـي دون معرفة نهاية الذات. فاقد الشُـعور خديعة اصطفيتها

كمخدّر لتهدئة تمزّقي. أُصلّي لنفسي المُعذّبة، ولا خيط يقودني إلى الخلاص أو الهلاك الكامل، فأستريح. غاضبٌ أنا، كذاك الّذي سمّم نفسه قصد الانتحار، فنام واستيقظ في وقتٍ لاحق. تراءيت أنا مثل شيء محال أن يكون.

خلال ذيْنَكْ الأسبوعين، مُطّلع على ما يحدث في نفسي، قُلت للطّبيب:

«لا أفهم ما بي؟»

«أنت تبحث فيه عن الأبوّة المفقودة»

«لا أفهم ما بي؟»

«أنت تبحث عن الأمان، والحنان الّذي حُرمت منه؟»

«من أنا؟»

«سؤال ستجيب عنه بنفسك»

«إذا فشلت؟»

«ستبقى ضائعًا إلى أن تجد إجابة»

وشرح لي الطبيب بشكلٍ كافٍ أنّ الطفل الّذي يفتقر إلى صداقة والده يلجأ إلى صداقة من هم أكبر منه سنّاً ليكتسب منهم الخبرة والحكمة، ولا يجد لغة مُشتركة مع من هم في سنّه وهذا ما يُسمّونه في علم النّفس بالبحث عن الأبوّة. أجد صعوبة شديدة في التفكير فيما يجب القيام به.

أعـدّه أبًـا على الرغم من أنّ والـدي قد فارق الحياة. أعتـبره أخًا كبيرًا حتّـى لـو كان لديّ واحد. أعتبره عالمًا كاملاً. عـالم من الأدب. ذات مرّة، قطعـت وعـدًا له أنّه عندمـا يأخذ دوائه في الوقت المُحدّد، سـأواظب على أخـذ عقاقـيري أنا الآخـر. عندما يكـون على ما يـرام، سـأكون كذلك. أبلغني عبارة أعطتني أملًا كبيرًا في الاسـتمرار في حياتي. أخبرني أنّ أمامنا سنوات كثيرة، سنسرقها قسرًا من الحياة.

في أعماقنـا مدافـن مخفيّـة ومظلمـة ومترابطة، من المسـتحيل كشـفها. وحدهـا الصُـدف تُلقي بأذرعهـا في مرمى ما خبرنها يومًـا، وتحديدًا في ما سيتجلّى لاحقًا. قد يقول قائل: «أرغب في الامتناع عن الشعور. أن أصبح بلون الرّماد. لا مُنتمي. لا مُنتظر». ثمّة سـانحة لهذا المحلوم باللّاشـعور، لا بأس بها، وهي أن يسـتأصل عصب الشـعور وينقضي الأمر. بعد عُمرًا ونيّفًـا. في ذات لاشـعور، وبـكل مـا في الكلمة من معنى، قـد يقول نفس القائل، بعد أن يكون قد حدّد نيّته: «أريد أن أشعر. أن أفرح. أن أبكي. أن أُبـالي». لم يعد له في العاطفة. كالإسـمنت في مكانه قد تصلّب. لقد وضع عينيه في موازاة المحسوس باللّامحسوس والمرئي باللّامرئي. لامس مسرّاته ولم يكن جذلًا. الموت حصد أحبّاءه ولم يتأسّى. خُلقنا لنشعر حتى ننزعج، لنضطـراب. لنختبر أيّان ما نُصادفه. الوقـت ضيّق ومُتقلّص ومراوغ. في مرحلة ما سوف تستنفد مشاعرنا ولن يولد أي معنى في أعماقنا. حتّى يأتي

هذا الوقت، ها نحن نشعر، ونحب، ونبتهج، ونتعاطف، ونُحوّل قلوبنا نحو ارتباك حواسنا. ما حدّده لنا القدر هو صدفة جميلة لُمداواة أنفسنا من ثقوب طفولتنا.

صداقتنا تُشبه التجربة الروحيّة لجلال الدين الراوي وشمس التبريزي. كُنّا متفاوتين في السن. وكلانا نال منه الألم. وكلانا يُلهم الأخر.

والعيد مُستمر، العيد يبقى، والأطفال فقط يتبدّلون

غادة السمان

(14)

قطفتُ زهرة وشكّلتُها خلف أذني.

ها قد أتى عيد الفطر إذن.

قُلتُ للساعاتي على نحوٍ ملحوظ:

«إذا كُنّا في الوطن، لعايدتكَ بعُلبة حلويات من المَحَال الأثير»

ردّ بحماسة فائقة وكان ينظرني من زاوية عينيه:

«اعتقدتُ أنّكَ بلا عاطفة»

بتعبير أدقّ العيدُ في الغُربة لا يطرق بابنا، لا يستحضر أنّنا في ترقّبه حتّى. كنتُ أُنفقه بمُفردي وأذهب إلى البحر. وإحقاقًا للحق، في الوطن، العيد لم يطرق بابي على الإطلاق. وطني غُربتي فيها. لقد فقد العيد قُدرته على جلب البهجة، ولم نعد سُعداء بقدومه، ولكن عندما يأتي فإنّه يزيد من مُعاناتنا. لم نعد نحيي الأقارب أو نزورهم. في كل عيد أخاف الأقارب قدر الإمكان. أستعين بكل الأعذار لتجنّب الاتّصال. والأقارب لا يجدون صعوبة في تمرير الإهانة، بل ينقلونها إليك بلباقة. في العيد كلّنا نبحث عن أشياء لم تعد موجودة وعلى الرغم من هذا، مازلنا نبحث عنها. وعيد

الأضحـى لا يتجاوز حدوده إلا لملء البطون المُتكتّلة من الدهون الزائدة. حيـث نبدأ في افتراس لحم الخروف إلى أن ننتهي منه كلّه ثمّ نصل إلى آخر جـزء منـه وهو الـرأس ثم الأرجل. فالخروف لا يسـلم منه شـيئًا، فنحن بارعون في تجزئته ونُشغّل آليات الخبث الأخرى فيه. كما أنّنا نفترس دماغ الخروف ونعتبره شـهيًّا، فثمّة من يسـتخدمه لتحضير «عجّة المخ». ينتظر الكثـير من الكبـار يوم العيد لالتهام خصيته. غالبًا مـا يقولون إنّه يضخّم قدراتهم الجنسـيّة، لذا فهم في الليـل وحدهم مع زيجاتهم ويلعبون لعبتهم الأثـيرة. أتنهيتُ من سرد عيد الأضحى التونسيّ على «كاثرين» المسـكينة في حين ترمقني بنظرات مشدوهة والصّدمة تعلو وجهها.

غصّت بالبُكاء قائلة:

«العيد عندكم، ليس فيه أي شيء طبيعي»

شدّدتُ في الآن عينه:

«دعينا نقضيه خارج أسوار المصحّة»

بعـد محاولات عديدة، وافقـت «كاثرين» على مضض، على الرغم من أنّ ذلـك كان خطيرًا للغاية بالنّسـبة لها، وإذا اكتشـف الطبيب «توماس» ذلـك، فمـن المؤكّد أنّه سـيطردها. وعدها السّـاعاتي بأنّنا سـنخرج ليلًا. سوف يعتني بي ولن يحدث شيء ولن يُلاحظنا أحد.

صافحها على نحوٍ غير مُحكم وكان واضح اليقين:

«وعد»

وبمُناسـبة يـوم العيـد أحضرت لنـا «كاثريـن» كعك الجبـن وبعض المُعجّنـات المُعدّة منزليًّا. كانت من الرعيل الّذين يرون الأشـياء الجيّدة في الحيـاة ويغضّون الطرف عن السـيّئ منها، وأنـا نقيضها في كلّ شيء. هذا جعلهـا صديقـة بدلًا من مجرّد ممرّضـة. كنتُ مفتونًا بـالأم المفقودة الّتي لم أختبرها من قبل. أنا مليء بالتعب وهي مليئة بالحيوية. قلبها ينبض بالحياة وقلبي يموت من الحياة.

دائمة الابتسام، أردفت بعد أن عقدت حاجبيها:

«الأكل يصرف المرء عن الآخرين»

احتضنتهـا ومضينـا جميعًا إلى الحديقة. أطرقتُ بـرأسي زمنًا لا أدركه. صعّـدتُ نظـري إلى حمامـات. أغمضـتُ عينـاي كأنهـارٍ تجمّـدتْ. كان السّـاعاتي شـبيهي، توأمـي. كان خارج الوقـت الّذي أدركـه. إنّه ضابط الوقت الموعود. ما الأمر؟ كان هو، نفسي أنا.

نظر إليّ السّاعاتي نظرة استغراب.

«ماذا عنّي؟»

ندّت منّي ضحكة خافتة:

«تعمّدت ذلك»

«سلّمني بعضها. أنتَ تتصرّف كطفل»

قُلت «وما الغريب في ذلك؟»

دنت «كاثرين» منّي وفي حيرة من أمرها تهجّمت بالسّؤال:

«**Vous parlez de quoi?** »

أخبرتها أنّنا نشتبك على فطائرها. ترجّتني أن أقاسمه إيّاها.

أجبتها وأنا أنأى بخفّة عن السّاعاتي:

«إذا عرفتِ ما كان يقوله عنكِ، فلن تعطيه الفطائر بعد الآن»

على عجلٍ، سعى السّاعاتي لإسكاتي بينما يصيح:

«**Ne vous inquiétez pas nous sommes des imbéciles heureux**»

هرولتُ مُشيحًا عنه وقد كان في أعقابي، محاولاته لأخذ الفطائر منّي واهية ومُضحكة في آنٍ واحد. تشابكنا بالأيدي. أوجه المُفارقة بيننا: أنّني مُبرمج، خطّة، في إطار، نمطي، وكان هو زائغًا، فوضويًّا، ومتخارجًا عن الزمن المألوف. ومن ثمّ أراني ألبوم صوره. في رصيده صورة تمّ التقاطها في لحظة ينظر فيها إلى الكاميرا أثناء الدردشة مع شخصين. نظراته مشدودة تُجاه الكاميرا وفمه على منحى «شُتْ». يتسربل بطقم أزرق ليلي وقميص أزرق سماوي. أحسبُ الآن أنّنا نتشاطر ذات اللون المفضّل. وهو الأزرق بدرجاته.

مـن انبثـاق الليل، قفزنـا إلى الخـارج دون أدنى تفكـير. وتُهنا في نيس العتيقة، كأنّها مرّتنا الأولى. بين أركانها وشـوارعها ينسـدلُ الليل بسـتاره الحالـك، تتخلّلها أعمدة مُنارة خافتة، وسـيلًا مـن السرائر، وبطرقعة من السَّاعاتي، الإبهام بالوسطى، تتسمّر عقارب الوقت. يسقط الحد الفاصل بـين الزمان والمكان. ويتصلّب البـشر في اللّافضاء. تحتَ وقع الحُريّة أنظرُ قاع عينيه وقتًا. ما أرقّ أهدابه المُنسدلة شغفًا. ألتذّ بتينك العينين. تُومضان زمنًـا. ترتخيـان وقتًا. تنـزّان أبدًا. ومن توهّج سـكرات الليـل، أقول على أقسـاط ودُفُعات كلـمات أصيلة، فصيحة، طيّعة، غائـرة، قانعة، مُنصفة. ماثلة بحبال القلب. ما أجمل الحياة ليلًا. أنفاسنا لاهثة تعلو وتسقط. قلب يخفـق ويتراعش. بعثرة جامحة. لا نَعرفُ للحُريّـة قُيودًا. إغواء وتضليل. وبلغنا من الإثارة عتيًّا. بين الركض والاستزادة لم نتركَ شارعًا إلّا ومررنا بـه. نملك تـرف الوقت. أحدسُ أنّ خفّـة الوقت تُقدّر بعقـد ونيّفًا. على محمـل اليَقين وبمأخذ الجَزم، لفرادتنا، كُنَّا التفاتات الزّمن وقلّة الصَّادقين في شريط المدينة. من ثمّ أستقطبنا أنفسنا نتَراقص ونتَطارب إلى تيه الأزقّة. إيثار ومُعاكسة ومُشاكسة. فوضويّة اللهفة. نحنُ ما كُنّاه آنفًا. نحن رهان اللقاء. لا شيء من شأنه أن يطيحَ بنا كوننا معًا دون أصفاد. نفعل كل شيء عن طيب خاطر. وعلى الترام، أستقرّ أنا ناحيّة النّافذة، بإذن منه. ونتفرّس سويًّا بالأضواء المُنتشبة والّتي تسير بين الطرق. نتّتجه نحو البحر. نركض بخفّـة الليل. نميط أحذيتنا ونطلقُ أقدامنا على الرمال الدافئة الّتي يترابط القمر عليها. نفترشُ الشاطئ. نرمق السَّماء بنظرات من كماليّات وتحدّي.

أتون السـعادة طبقنا الأسـاسيّ. ثمَّة شيء لم أسـتطع أن أحسبه إكتسحني ودونـه لا أريد شـيئًا. ولنوايـا المُصادفات رأيٌ آخـر. صداقتنا أحد أوجه الأبديّـة. الصداقـة أغنيّة عُزفت لأوّل مرَة أو زهـرة تفتّحت. مثلَ كمنجة لم يفهـم ذويّها نوتاتها، فهمني فهمًا حـدّ الألم. كغيمة ماطرة ارتأى أجزائى وقـرأ بواطنى. أنا الغريب الّذي ليسَ له مذهبًا. ارتميتُ بكلّي على الرمال. كـما يرتمـي الطفل بين الثلـج لأوّل مـرّة. جعلتُ رأسي تنزلق وتتحسّـس حبّـات الرمـل. « يـا ربّي أعطني من عنـدكَ أمانًا لا يرجّه كـدر وأخذًا لا ينقطع » وبهذا الإنسجام الّذي لا يُوصف مع السّماء قُلت.

المُعلّم المُتواضع يُخبرنا، والجيّد يشرح لنا،
والمتميز يبرهن لنا، أمّا المُعلّم العظيم فهو الّذي يُلهمنا
ويليام آرثر وارد

(15)

السّاعة تومئ إلى التّاسعة صباحًا. الشمس مُضطربة. ينزلق لسانها الرهيب بهدوء إلى الغُرفة. استيقظتُ في مزاج جيّد. السّماء في هذا الصباح صافية. الهواء ليس ثقيلًا. والسّعادة تلوح في الأفق. شيء فريد أن يبدو اليوم هادئًا، هل اختلطت ذرّات المورفين بعناصر الهواء؟ أم أن هناك شيئًا مريبًا حدث دون أن يلاحظه أحد؟

عمدتُ والسّاعاتي إلى القاعة الكبرى، على أمل العثور على طاولة مُنفصلة عن الجميع. كنت أدخل الأماكن العامة وأجد طاولة بها كُرسيّان. اعتاد القدر أن يخدعني. كثيرًا ما كان يسخر من وحدتي..من تفرّدي..من غرابتي..من ابتعادي. لكنّ الأمر مختلف الآن. انشغل السّاعاتي بقراءة كتاب. أتجنّب التحديق في الموجودين. لكم كانت نظراتهم تُزعجني. أخذت أفرد أوراقي. وأنا في حالة من الارتباك السّاحر. وهل يُصبح الارتباك لونًا من ألوان الجمال؟ أنا مزيج من الغرابة والصقيع والارتباك. أتى أحدهم من الخلف. ذلك الأحمق الّذي اعتاد أن يقول أنا لم أعد أتحمّل هذا. لا يَنِي عن مُضايقتي. وجّه لي مرّة اتّهامًا غريبًا، ألا وهو أنّني سرقتُ أحلامه وأعطيته كوابيسي.

وضع ورقة على المنضدة وقد قمع خوفه:

«قائمة الطّلبات، سيّدي»

أعتقد به سُخفًا. كان ذلك يُضايقني بشدّة. لم أعد أرى من داعٍ من بقائي. أخذني السّاعاتي على جنب. وأعلمني أنّ هذا الشخص مريض بتعدّد الشّخصيّات.

«يجب أن تكون سهل التعامل معه»

«هذا الأمر جليّ»

بعد لحظات ولّى عائدًا وسألني عن طلبي. اعتذرتُ له بحجّة أنّ ذهني مشغول ولم ألقِ نظرة خاطفة على القائمة بعد.

«احضر لي قهوة وسط من فضلك»

استوقفني مُستنتجًا:

«أنتَ عربيّ إذن»

«هل ألوح مستشرق إلى هذا الحد؟»

«ألم تتحدّث معي بالعربيّة توًّا؟»

«أصبحت اللغات فوضويّة في رأسي»

«أنتَ كاتب؟»

«كلّا»

قلت ذلك بينما أفرد أوراقي. انصرف وتركني. أكتب كشكل من أشكال العلاج. بمعنى آخر، لتحرير طاقتي المكبوتة. كُنتُ أكتبُ عن المُجتمع الفرنسيّ المُتحضّر. لأنّه يعي جيّداً أنّ الطّفل عِماد الأسرة، والأسرة قوام المجتمع. وعلى الرغم من ذلك فهو لا يخلو من مظاهر العنف ومليء بالانتهاكات في حق الأطفال. ومع ذلك، فإنّ المُؤسّسة تدرك ذلك جيّدًا وتُراقب الأطفال وتعتني بهم لدرء عواقب المُعاملة غير العادلة من قبل الآباء غير المؤهّلين لإنجاب الأطفال. أشعر أنّ ما أكتبه سبق أن قرأته في الروايات. ولا أفكار لي. لكن كل هذه التخمينات مجرّد أوهام كما نقل لي «توماس. ما خبرته جعلني أشكّ في قُدراتي. أردتُ إبادة الوقت في كتابة رواية أنتقم فيها من كل من أساء إليّ، وخاصّة هؤلاء الإداريين بالكُليّة. كانت لازمة أن أتحرّر من الماضي من خلال الكتابة، لكنني وجدت نفسي أتقبّل نفسي ولا شيئ أتحرّر منه.

رفعت بصري من خلف النظارات، جذبتني نظرات امرأة تلوح في أفق الثلاثينيات. كانت تُتابعني بعين حريصة بين الحين والآخر. ترقب تقلّبات مزاجي. تقلّبات مُعلنة عن كلّ شيء. شعرت للحظة أنّني عاري أمامها، وشعرت أنّها قد لاحظت غرابتي وبردي وارتباكي. سقطت قطرات من العرق من جبهتي، لا أستطيع تحمّل أي شخص يراقبني. أدركت أنّها عربيّة. هذه هي ملامح العروبة، العروبة الّتي لا تخلو من التجسّس. نتوق إلى النّظر إلى حياة بعضنا البعض. نُشاهد أفعالهم

واهتماماتهم. نراقب حياتهم وتبدو أجمل من حياتنا. لأنّنا لا نملك حياة نعيشها.

صوّب لي السّاعاتي ظنوني:

«كلّا، ليست عربيّة، لكنّها مُصابة بجُنون العظمة»

بدأت أشعر برغبة مُستمرّة في التبول. انزلقت من القاعة لأتجنب تلك النظرات الشاخصة، وتوجّهت إلى الحمام.

قبل أن أُغادر، وجّهت لي تلك المرأة كلامًا:

«أنا أفضل منكَ في كل شيء»

«أُغربي يا صاحبة الوجه الشاحب»

جُبتُ أشتات الممرّات المليئة بكومة من الوجوه الغريبة، هذه الوجوه مشبّعة بالأرق، وهذا الأرق ناتج عن أدوية ليليّة. أتت إليّ امرأة في الستّينيات من عمرها وطلبت منّي بحُسن نيّة وبفرنسيّة أصيلة أن تقرأ سُطور راحتي. ووضعت قبلة عميقة على جبينها.

قالت مُستاءة «لن تكون في الثلاثينيّات من العمر»

نعرف بأنّنا نحتاج أسبابًا أقسى من العقل والمنطق لكي نبرّر الهجرة،
أكثر انفعالًا، أكثر سطوة وحضورًا
بُثينة العيسى

(16)

الانتظار سجن، على غرار كل ما عداه. تمرّ الأيّام مُتسرّعة على جري العادة. إن جاز التعبير، تنخرم الأيّام بطريقة سلطويّة. أيّام الآحاد تلهو بنا في فراغ الوجود. لا شيء نفعله. مارسنا الرياضة في الصباح الباكر، ثمّ شاهدنا فيلمًا جعلني أكثر استياءًا من العالم الخارجي. وقفتُ أمام النّافذة، بين المكان واللاّمكان. أمسحُ ريش الحمامة في حنو.

«اذهبي إلى الوطن وبلّغيهم منّي السّلام»

وأستحلفها ألا تخبرهم أنّني أعيش في هشاشة، وأنّ الفشل حليفي. وإذا إستعلمها أحدهم عن أخباري فلتقل له بأنّها قطعت علاقتها معي بعد هذا السلام. كيف يمكنني أن أُفهم ذويّ فشلي المُؤسف في وطني وفي أوطان الآخرين؟ هل هناك أي شيء آخر، غير الترقّب، يُمكنني القيام به بعد هذا الإخفاق؟ لمن أعوذ من هذه الهزيمة؟ يا لخديعة القدر في نفسي. لم يتركني الوطن وشأني إلّا وكسرني. هنا هو الاغتراب يدفعني دفعًا إلى ذات الحصيلة؟

لا أشعر أنّني بخير. لا أستطيع تحمّل المرّات المُتكرّرة للذهاب إلى الحمّام للتبوّل.

تراكم التعب في ذهني ريح عاصفة.

وجدني السّاعاتي في حالة رثّة، أخطو بتثاقل وكلّ شيء فيّ توافيه المنيّة ولا يموت. يتوالد الضّجر في أعماقي. لم يُكلف نفسه عناء السُؤال عنّي، لأنّ ذلك لا يهمّه طالما أنّني صديق جيّد ومخلص له. ومع ذلك، فاجئني بسؤاله.

«لماذا غادرت؟»

أجبته بمرارة، وهو مستمر في مُتابعة تقلّباتي وهزائمي وإخفاقاتي:

«بحثًا عن الذّات»

«ما لم تجده في بلدكَ. لن تجده في بُلدان أخرى»

تاقت نفسي إلى أشياء كثيرة منها الوطن. أحنّ إليه في سابقة جديدة لا عهد لي بها. ولا أعرف سبب ذلك. الحياة في الوطن مميتة، قاتلة، لمن يستكفون بذواتهم وينغلقون في قوقعتهم، كتركه تمامًا. وأولئك الّذين يعتزّون بالأحلام ويسعون لتحقيقها، يُفاجئهم صائدو الأحلام ويحطّمونها. وعلى نقيض الوطن، لا يحمل الغرباء هنا ضغينة ضد أحلامك، فهم يُحفّزونك لأنّهم لا يملكون أي صلة بك. حكا لي عن اللحظة الّتي جاء فيها إلى نيس. كان يرتاد الفنادق الرّخيصة. النّوم على

بطانيـات كريهة الرائحة. يسـتمع إلى الاشـتباكات في الشـوارع المُرتجفة. يصخـب في أذنيه مزيج من نُبـاح القدر وعويل الأعوام المُضاعة ونشـيج السّائرين. كان يقضي طوال الليل يسحب سيجارة ويتعثر في ذلك السرير المتعفّن. يُبدي مُحاولة تشـغيل التلفزيون في لحظة يأس وسُأم. يفعل كل ما في وسـعه. يلطمها على رأسها وجوانبها وما بذي فائدة. فيضجر ويترامى إلى الفراش مُتظاهرًا بالنوم. والقرف مختبئ في عالمه.

كانت العاصفة قد بدأت عندما نقل لي شعوره بمُغادرة هذا المكان.

«يجبُ عليكَ أوّلًا إكمال العلاج »

وكان له رأيٌ آخر:

«أشعر أنّي شُفيتُ»

عـن نفـسي لم أفقد شـعوري بالتعب حتّى الآن. كل خطـوة أتّخذها في طريقـي، مـن شـأنها أن تـؤدّي إلى حفرة لن تظهـر إلا بعد سـنوات. وأنا مُتيقّظ في خُطواتي الحالية. ولسـتُ على شيء من الاسـتعداد لأقع في نفس الفخـاخ. يُمكننـي إقْتِضَـاب الألم النّفـسي في واقعيّـة أنّ كل إجـراء تقوم بـه مُؤلم. حتّـى فتح الباب يُؤلم. يسـودك شـعور أنّ أعصابـك عارية مثل الأشـواك والحُـروق، وبمجرّد أن تفتـح الباب، حتّى يغشـيك الألم الّذي لا يُحتمل. لن تسـتبق اللحظة الّتي سـتنفجر فيها بالبكاء ذلك لأنه لم يعد بإمكانك فتح الباب. ما أدراك عن إنقطاع التفكير وعدم انتظامه.

«لي أن أشعر بضغط المواصلات بمجرّد خروجي من هنا»

«يجب أن تُحبّ حياتك كيْلا تتعب منها»

«لا أستطيع أن أحب حياتي»

«لأي شيء؟»

«لأنّها لم تحبّني»

«توقّف عن قول ذلك. ليس صحيحًا. اعطها فرصة»

أخذ يُشاهد التلفاز. أنطرحت على الكنابيه، ودثّرتُ وجهي بالوسادة. مرّ وقت. مرّ حين طويل من الزّمن. وشيئًا من عبث. وشيء عقيم. بدوتُ زائغ العينين من رجاء يبكي. وددتُ أن أصرخَ من عميق أعماقي. في الواقع، لم أكن بحاجة إلى شخص أثرثر معه، لكنّني كنتُ في أمسّ الحاجة إلى شخص يجلس معي في صمت. هل من الممكن كسر هذا الاكتئاب؟ أم سأعُالج منه بقيّة حياتي؟ سحبت الوسادة عن وجهي وعانقتها. تجاوزت عقارب السّاعة السادسة مساءً. ألفيته يغرق في نوم عميق. لم أشأ إيقاظه. جلبتُ بطّانية ولففته بها. جعلت عينيّ تنظران إليه وسرّت عينيّ بما لم يقال. يعنُّ لي أن أكتُبه. يلذُّ لي أن أقرأه، كونه أتى من أقانيم الزّمان. ليس من هذا العالم ويتصرّف في الأمور بتُؤَدَة وروّية. يفعل الأشياء بالمُداولة والسَّرد. غيرُ مؤرّخ ولا آجال لوجوده. لستُ أرى ما يجيش بأعماقه وفي وسعي أن ألتمسه بأعماقي، إنّنا توأمان الدّهر أزعمُ أنّه

شرخًا حلّ ببواطني لن أبرأ من وصاله، لن أُشفى من سَكرانهِ، ناهيكَ عن صدقه العذب الّذي تلبّسني. كُلّي براءة الصداقة فيه. والفجر ينبلج كالمعبر المُشعّ من تلاقي النّفس بمثيلها. به وجدتُ تحويرات جذريّة في نفسي. في زمنِ الخُسران والربح الواهي، أعتدُّ بظفري به. لا يُنسبُ الأشياء إلى نفسه حتّى وإن كانت من مُلكه. كان العالم كشيء عصيّ على الفهم وكان فهمي الّذي خبّأته المدينة.

وإستغاثة العصفور في الظلام حين بعثرت الأمطار عشّه

ليلى بعلبكي

(17)

عـاودني ألم البـول ثانيـة. كان مصحوبًا بالدم. أشـعر شـعورًا مُفجعًا بالتمزّق. لم يُصدّقني «توماس» في البداية، تمامًا كما لم يصدقني عندما نشـأ ألم أسـناني، لذلك أجريت بعض الفحوصـات. كان البول يحتوي بالفعل على الدم.

«لديكَ بعض الرمال بمثانتكَ»

صرف لي حفنـة مـن الأدويّـة. لقـد مرّت عـشرة أيّام ولم أشـعر بترف الشـفاء. أعطاني مُضادًا حيويًا. تحسّـنتُ قليلًا ثم عاد الألم. لا ينشقّ عنّي. أحطّـم جـداره دون جـدوى. كان الألم رهيبًا وعقيمًا. لا أسـتطيع وصف ذلـك. كأنّنـي أحمل بداخلي بُركانًا أهوج وعنيـف. أتبوّل أكثر من أربعين مـرّة في اليـوم. كنت أتألّم بـدون تبـوّل. جعلني الألم أبكي بشـدّة وأرغب بالموت. لا أجد تعبيرًا عن الألم الّذي أشعر به. يدفع بأيّ عاقل إلى الجُنون. باسـتغاثة العبد الشـقيّ أرغب في إفـراغ البول المُتعاقـب كل خمس عشرة دقيقـة. أرغب في إفراغ البول والسـائل المنوي معًا. أقضي الليل في الحمّام. خـبرتُ كل الآلام، وكان هـذا الألم أشـدّ مـا يكـون. لا أجد لـه منطق أو وصف. كأنّه تمزّق بمجرى البول. كما لو أنّ وحشًا يخرم جهاز البول بإبرة

ومسمار. كبرتُ مائة عام من السُأم والمرض. بدأتُ أطفو في إحساس من ضباب سام ومُهلك. تمّ تحويلي إلى أخصّائي أمراض الكلى والمسالك البوليّة. لا أستطيع أن أنسى إختبار منظار المثانة الّذي أجريته. زوبعة من الخوف والتعرّق. وصفير يطلّ من مجاهل ظلماء رُغم عويل الريح بالخارج. فقدتُ في خضمه أعصابي. أدخلوا كاميرا عبر فتحة البول. وشكتُ أن ألفظ أنفاسي.

قال طبيب الكلى. «يُمكنكَ أن تُمسكَ يدي»

أحمرّ كالشمندر. دام الأمر نصف ساعة. كان هُناك سديم أسود يحوم حول نفسي المكسورة كسرب من الغربان. قد يقول قائل كيف قبلتُ هذا التحليل؟ كان الألم هو الّذي قادني إلى هذا.

«مثانتكَ نشيطة جدا»

طلب منّي -فيما بعد- التبوّل في حوض خاص. إذا لم أتبوّل طواعية فهذه كارثة. لقد فعلت ذلك بجد. ومن فرط وجعي أفرغت تقريًبا كل الطعام في معدتي. تناولت تولتيرودين لعلاج فرط نشاط المثانة، وهو الحاجة المُلحّة والمُتكرّرة للتبّول. تمّ إيقاف أدوية الاكتئاب والقلق.

«هي الّتي سبّبت لكَ هذه الفوضى»

شعر الطبيب «توماس» بتأنيب الضمير. تحسّنت لمُدّة عشرة أسابيع

وعـاد الألم. إنهيـار كُلّي ملتـاع من نفـس تمزّقـت. أنين مُرعـب ينزلق إلى صُراخ واجـم. أجريـتُ اختبـارات أخـرى وتمّ تغيـير طبيب الـكلى. تمّ تشـخيص إصابتي بالتهاب البروسـتاتا الحاد. امتنعت عن تناول أي دواء للمثانة ووُصف لي مُضـادّات الالتهاب والمضادّات الحيويّة. أغرب التُهم الّتـي وُجّهـت لي أنّني قد ارتكبتُ أشـياءً خاطئة بالمصحّـة. لم أُحجم عن الاستشـهاد بكلّ الأشياء المُقدّسـة، أبذل مُحاولة للتدليل أنّني لم أفعل شيئًا في حيـاتي. عندما كان «توماس» وحيدًا معي –في مكتبه– أشـار لي بطريقة ما أنّني فعلتُ شـيئًا. وجّهت يدي إلى بورتريـه مريم العذراء مُخلّصًا أنّني مثلها. لقد أراد فقط أن يُلقي بفشله عليّ. لقد غضبتُ مثل زوبعة مُستعرة.

أخذتُ أسـلك طريق الشـفاء، لكنّني لم أكن سـوى واهمًـا. كان الألم رفيعًا. أدرك بقهر شـامل أنّني غير قادر على التعافي. تمّ تحويلي من طبيب إلى طبيب. خمسـة أطبّاء كِلَى، لكلّ منهم تشخيص مُختلف. كشف تخطيط البـول عـن وجود انسـداد في المسـالك البوليّـة، الأمر الّذي نفـاه الطبيب المُـوالي. جـزم الأخـير أنّ ما حـدث لي هو تهتّـك في أعصاب البروسـتاتا والجهاز البولي عامّة ذلك من مُضادّات الاكتئاب. صرف لي دواء عُشـبي يُنظّـم عمـل البروسـتات، باكلوفين وهـو دواء مُرخ لتشـنّج العضلات، وفيتامين سي والزنك. امتنعتُ عن شرب المنبّهات، والمشروبات الغازيّة، ولاسـيّما الأطعمة الغنية بالتوابل، إلى الأبد. حتّى مُسكّنات الألم تُثير ألمي. يختلـف ألم البول عن ألم القلب. إنّه حتّى أسـوأ من هـوسي وإكتئابي. متى يحـترق إصبعنـا يتدفّـق ألم عظيم عن هذا. مـاذا عن الإنسـان إذا كان هذا

الحرق في جهازه البولي؟ هذا المكان الأكثر توتّرًا. لم أشعر بأي تحسنّ إلاّ بعد أربعة أشهر. بتعزيز من السّاعاتي الّذي لم يتركني فريسة المرض. كان يوقظني كل صباح لممارسة الرياضة. أحضرت لي «كاثرين» عشبة تُخلّص الجسم من سموم الأدوية. أشرب فنجانًا مسلوقًا كل صباح ومساء. وكلون من ألوان التخفيف من جلد الذات، ساعدني «توماس» في إدارة الألم والتكيّف معه من خلال التنويم المغناطيسي. ومع ذلك لم أستطع أن أنسى تلك الألام المُبرحة. جعلتني أبكي كطفل. ولكن يمكن لأي إنسان أن يتخيّله من فرط ضياعي وبُكائي. أمزّق هذين العامين من ذاكرتي ولا شيء يُقتلع من رأسي. تغيّرت حياتي تمامًا. تلك العقاقير المُظلمة والمَجهولة الّتي استقرّت في جوفي، جميعها خاطئة. عواقبها سوف تشدّني إلى الموت. يا سُأم السنين في وقتي. لا أدري لماذا يعصرني شعور قوي بأنّي لن أعيش طويلًا. ما من شيء يُعيدني إلى سكينة نفسي بعد هذا التيه الرحب. تلك الصيدلانيّة المُتربّصة كانت على حق. الأدوية النفسيّة تخلق أمراضًا لا يستطيع الأطبّاء فهمها.

ذرّت السّماء المطر فعظُم أساي. أطلقت راحة يدي وحدّقت في خطوطها. ألقيتُ نظرة على الخطوط غير المكتملة، استحضرت، على حين غرة، ما نقلته لي قارئة الكف بنظرات هوجاء، سأنتهي على أعتاب الثلاثين. لن أصلهم. خلّصتُ إلى التساؤل عن مدى تطابق ما أخطرني به طبيب الكليتين الغبي يومذاك، أنّني سأصاب بالسرطان في غضون بضع سنوات من جرّاء الأدوية الخاطئة. وجدت أن نبوءة تلك المريضة تُطابق

تنبّـؤات الطّبيـب إلى حدّ ما. خلّصتُ إلى التسـاؤل عن عمري الآن وماذا بقـي منّي. ما تبقى منّـي لا يكفي لتحقيق شيء ممّا أروم إليه. سـوى مزيد من السُخط والتَخمين.

يبقى التخمين فرضيّة، غير أنّ الفرضيّة تركتني أحبّ كل يوم ينقضي. كان ينبغي أن أشعر بالأسى على كل شيء. وعن حالي وعن ضياع مستقبلي ولاسيّما عنّي، أنا. كان يقتضيني عصا سحريّة مثل الحكايات الخيالية التي رأيتهـا في طفولتي لأحقّق كل أحلامي في فترة قصيرة من الزمن. قُلتُ في نفسي: «سينقضي العمر ولم ألتقِ بأمنية واحدة.

مـا تبقّى من العمـر لا يكفي للوصول للقمّة. ولكـن الحقيقة اليقينيّة، أنّ مـا نقدمّـه ومـا نتلقّاه من دعم يُنسـينا القمّة. المكان لا يهـمُّ، ولكن من يُساندنا هو الأهمّ.

في خِضم اليأس، تتلاقى أعيننا:

«لا تخشى شيء»

بيننـا تقارُبًا. بيننـا علائم سريّة تفـكّ النّظرات شـفراتها. كنتُ نحيلًا وشاحبًا؟ كمن أنهكه عِلاج السرطان.

اسـتقطب رأسي المُنهكه بين يديه وضمّني إليه. بدوتُ مُتوسّـط القامة أمامه. استقرّيتُ في موضع الصدر. ولفّني بذراعيه. أنشأ مُورفين الصّمت يسري بيننا مثل كل الأشياء الّتي بيننا. الصداقة ظاهرة كونيّة تدوم وغيمة لا تفنى. لا تعرف ذاكرة ولا تقصدُ سنًّا، بل صدقًا.

قُلتُ بصوت مشوب بضجر كبير:

«ماذا لو»

ألجمني السّاعاتي ناهيًا:

«لن يمسسك العالم بسوء. أنا قبّاض الزمن وعدّاد الوقت. سوف تعيش. لن نُقهر. ستكون في حرزٍ آمين»

إذا طرقع السّاعاتي الإبهام بالوسطى وتحجّر الوقت والنّاس، لئِلا تنفد سنيني وأموت، فماذا سنفعل وحدنا في هذا العالم الرحب؟

أقولُ على عجل:

«ألنا بصُورة للذكرى البعيدة؟»

«وفق مرامكَ يا عزيزي»

في عزّ ضياعي وسُأمي ألتصقُ به كما لو أنّنا في مجرّة ثانية عن هاته الّتي تتّصل بأُناسنا. جنبًا إلى جنب، تتلمّس أناملي راحة يده. أصبحتُ من نفسه. تلتقط لنا «كاثرين» صورة بالكاميرا خاصّتها. نسترقُ صُورة وحزمة من الزّمَن. ما بيننا كيمياء الزّمكان. لا تجاعيد لمواسيمنا ولا مُوفى لقصّتنا. له صيتٌ خاص. يُسيل تطلّع قناعاتي. لا شيء ممَّا فيه يعني جُموع العالم رُغم جهلي بالعالم. أنا وهو سربٌ لا سماء لسائر الطُيور. نحن قادة دون جَيش، نحنُ الجَيش، نحنُ الحَصن ونحن الرُماة. كان ذو أنفة. ابن الحُسن. ظُنوني الغيبيّة. تأكيدي اللحظي. عُمق الحظ. وَميض النّفق.

وانثلاج الحرب. كان لي. ليس من أحد. كان منّي، طليق. مدويٌ في بسالته. بـاذخ الفهـم. بطلٌ بفاكهـة التورّط وعبـق الفُضول ومُشـفّر بالغموض. دَعْـوى العصيان. يُجيـدُ التجليّ والتواري. رهان العُمر. معنيّ بالشـهامة. مُترفّعٌ عن الإختيار. مُنشـق عن سابقه ومُقتدر بقادمه. لا يبثُّ قُدومه. لا يفتعلُ حَركة عن ثَباته. حسـبُه أن يقف طويلًا شـاخصًا بنظره فيقعُ زيْف من حوله في وئام مُتلاشي. ما حُضوره إلّا شُعاع الحقّ الّذي أحسنَ صنيعًا في سُطوعه. حَسْبُه أن يصمتَ في زمنٍ يُدركُ فيه العالم الثرثرة ويسطو على أشـباه الوقت. لا يُنازلهـم، يترفّع عن تُرّهاتهم ويا لفيـض تُرّهاتهم. يتفرّد بنفسـه وبمن يُخلـصُ له. يكمن في مرّاتـه الأولى. لا يعرف الكـونُ طريقًا لِقِطَافِ ساعاته. ولا يقتدر لجم ما يستوجب قوله في وقت الحقّ. لا يُرجِئ كلامـه. غـير واردٌ في مُعجم الهزيمـة. منطقيٌّ المُثابرة. على هـذا القدر من الألم. يختبر النّاس بذكائه مع بصيرة العاطفة.

يُـدوِّمُ العُصفـور مـن على كتفي ويتّجـه نحو القط وظل القط يشـخر الطائر. بدوتُ عاجزًا بينما كانت عروقي قاسية وقلبي على وشك الموت.

حُب المرأة مُتقلّب كالقمر

أمّا حُب الأصدقاء فثابت كالنُجوم

مثل يهودي

(18)

كانت حالة السّـاعاتي النفسـيّة والصحيّة تتحسّن تحسّنًا جليًّا، فشعور بالمُغادرة قد كان له. قبل مُقابلته، كان قد تقرّر منّي الإستسـلام. صادفت وإيّـاه تضمّـدًا لا ريب في أنّه سـيكون لا بـأس به إن اسـتمرّينا في الكفاح سويًّا. أجدني الآن أكثر تقزيزًا لذاتي، وفي قمّة إنهياري، ما أن قبّلت أُذناي نبـأ رحيلـه. تملّكني لون من الجمود. سـبق وأن تعاهدنا على بقاءنا سـويًّا نتحارب في وجه من يقطع عنّا الأسـباب. اليوم خيبة أملي كبيرة وجرحي ينزف بدرجة لا توصف. ولا شيء من شأنه أن يُعيد ثباتي. ما أقسى حاجة المريض والمُنهار إلى المُؤانسة. خلتُ أنّنا سنهوّن دروب المشاق على كِلينا، وسـوف نغدو خلّان مدى الأزمان، وليس أبناء الزّمن الّذي يتناسـى فيه أحدنـا الأخر ويتركـه ذاويًّا وذابلًا في أسـوأ حالاته. حين يهـبّ الرحيل، يهبّ معه بعضنا الّذي لن يعرف طريق العودة إلى ما كُنّاه ما قبل الرحيل. أنا عن نفسي، ومن عميق أعماقي أترجّى له شـفاءً تامًّا، وفي الآن عينه، لا أريده أن يُغادرني بأيّ شكلٍ من الأشكال.

قلتُ بعد أن انتفخ رأسي:

« أنا وإيّاكَ. أن نبقى. دُونكَ أفنى. وفي حضرتكَ أبقى »

« لا بُدّ لي من الرّحيل»

«خلت أنّي وإيّاك سنُعانق أحضان المضي قدمًا»

« للحياة مسارات غير الّتي خطّطنا لها»

سـقطت نفسي في بئر مـن ظلام ولم تنكـسر. إلى الآن لم تبلغ نفسي قاع ظُلمة البئر. استحال لون وجهي إلى شبح لا يُخيف. من العويص أن أقول «وداعًا» مكان أن أقول «إلى المُلتقى» فهو لن يُولّي أدراجه عائدًا مُجدّدًا.

«أنتظركَ بالخارج»

«وعد؟»

يسرُّ رُغمَ دِثار الشُعور:

«للحياة وعود مُعاديّة»

دنا منّي. دنوت منه. وفي صمت تعانقنا. عيون طائشة وكيان في لوعة. خـدًّا إلى خد ألتصـق به، وأبوح بـألم عقلي يرعد. تغيّب صوتي وتحسّسـته برأس أصابه الضنك. أظلمت عيناي فاسـتنار قلبي. فتحتُ عيناي ألفيته مُتوهّجًـا كالفسـفور. كمُعجزة اسـتقرّت بسرائري. تجتـثّ أذرع التعب المُتّسـخة عن ما تبقّى من عشرينيّاتي. إنّ الوُعود المضروبة في أوقات الحُزن هـي وُعود الحـق الّتي لا يخـلّ بها أصحابها. لهـذا وعـود الأصدقاء تغدو منسيّة. عاهدوها في أوقات الغبطة والسعادة.

حادثته بخرس الكلام وحادثني بثبات واثق:

«لا أستطيع مُغادرة المصحّة بدون مُساعدتك، سأواصل حياتي تحت مُضادّات الاكتئاب»

افتضح ضعفي النّفسيّ له من نظرات زاغت عن العقل.

تحت وطأة الفجيعة، هدّئ من روعي قائلًا:

«ما من مُبرّر لهلعكَ. إنّي لمُغيثك»

حدّثته همسًا:

«إنّكَ من تلك الصّباحات القادمة لتنُيرني، فلا تذهب»

ضمّ وجهي بين يديه مُطمئنًا إيّاي:

«سأعود»

«رجاء، خُذني إلى ركن من ذاكرة بيضاء»

«أينما تشاء، سنكون»

«عدني، ألّا تدع القدر يغضّ من شأني»

«لا شيء من شأنه أن يحطّ من يعلو فوقه الشأن شأنًا»

«الوطن أهلكني والغُربة في ثنيّتها إلى الهتك بي»

غمغم توكيدًا جازمًا:

«في الوطن لم أكن مُلاقيكَ أبدًا وفي الغربة لاقيتكَ فعلًا»

«عاهدني»

«وعهد الكون»

أخرج من جيب معطفه الأسود الطويل، قلادة على شكل ساعة. بسط يدي ووضع القلادة.

تنفّس جبروت، رمق الوجود، وقال ببسالة:

«لكَ وقتي، سوف تعيش»

شظايا رذاذ لعابه في أذني. تقشعرُّ له أوصالي لسُعار انخطافي به. مآذنٌ تصدح وأجراسٌ تُقرع. أوقاتنا سنابلٌ ستُعيد خلق نفسها بنفسها. وكتمتُ في نفسي الّتي ما عاد يُثيرني فيها شيء غُصّة بكاء. أحدتُ النّظر في عينيه. أشعر بالفقد والكسر. أشعُرُ بفراقه في نفسي مثل دبيب الخَدْر في اللحظة الّتي تبتعد فيها أجسادنا. أنظره كما لو أنّها مرّتي الأولى. كما لو أنّها مرّتي الأخيرة. كما لو أنّه وجعي الأبدي. كما لو أنّي أُفارقني. أ سينساني حدّ نُكراني؟ لعلّ شأني لا يعنيه حدّ فُراقي. لعلّني اخترعتُه في فكري دون أن يدري وتعذّبت أنا دون أن يكون له بالًا؟ عساني المُخطئ وما كان يجب أن يكون ما لا ينبغي أن يكون. أنشأ يبطئ من خطوه وكنت في المقابل أنتظر التفاتة، ولو نصف التفاتة، غير أنّه مضى ومن ثمّ تلكّأ في سيره دون أن يلتفت. كلانا يغيب عن الآخر. ما أقساه من شعور. ما أمرّه من حسّ.

جنائزيّ هذا المشـهد. يتلامح الموت رحيمًا مكان مشهد غيابه عنّي. أنظره ختامًا والدّمار المُهلك يقضم قلبي. لم أقتدر على أن أسهب النّظر بأجزائه. على عاتقي طبقات من الاكتئاب والحُزن. أشـعر وكأنّني مُعلّق في أحلك الأماكـن. ضللت الطّريق ولا أجد طريقي للخروج. وعوض أن يبتلعني هذا الظّلام. أشـعر أنّي أمتصّه إلى أقصاه. فُراقه كان لي جُرمًا وهذا ما كان مُتوقّعًا.

كان نسـيانه أمرًا لا يُنسـى، كنيسـان الّذي فيه من ذكريات لا تُنسـى. وكان هجره بوصلة خسارتي. يُشير إلى أماكن مجهولة الموطئ. لم يعد لي من أحيكُ له ما في نفسي. لم يعد لديّ أي علاقة بنفسي. هذا التقعّر في قلبي لن يملأه شيء. دأب أن يُوصي بي خيرًا. أن أُلقي بالًا على شأني. وأنا من بعده في ضيـاع تامّ. وفي أردأ أطواري. يعـصرني التأسّي. ولا أعرف ماذا أفعل. أكون في حديث مُتّقد مع نفسي حيال ما سـوف يطرأ في سـنوات الضّباب اللاحقة. ببساطة وسلاسة أردت أن أقدّم له شروحًا وإيضاحات بشأن ما أنا عليه في اللحظة الحاسمة والحرجة، غير أنّه ما كان سيفهمني على وجه السّرعة وسـيظلّ أمري حدث مستنفد وغير معلوم بالنّسبة إليه. لئن كان الضّرر مرتبطًا بشُموليّة معاناتي لهان شأني. أين أنا من بعده؟ وأين حلّ به المقام من بعدي؟ أم أنّ المقام قد اسـتقرّ به في جوف الحياة ونسيني ولم أعد ذكرى، غير أنّ ذكراه تُعاودني كثيرًا في يومي. أغلى الأشـياء في هذه الحياة هي الّتي اسـتوطنتنا في مكان لا نمتلكه مكان أن نتملكها. لا زلتُ أتقصّى عـن خيط العُبـور إليه وانقطاع الفوضى عنه ولن أُمسـك مُحتمل الاهتداء

إلى وُجـوده وتوثيـق مُعجزة حضوره. قبل لقائـه كان الطّريق من ظلام ما مكّننـي من صدارة الترسّـب والرُكـود في تزاحم تيّـارات أتون الغضب، وعقب مُلاقاته أجدني في مرمى النّور وسكينة البال من أحقاد، في الماضي، قد دمّرتني.

إنّه سرمديّ النّشـئة. شـيمه التأنّي. عتيُّ المواقيت. عـلى أطلال تجمّره. ضربـة حظ. لا يحبّ الأضـواء الكاشـفة. يُتقن حبكات حياتيّـة. بما أُوتيَ مـن شُـموخ وتواضع. من بريق عينـي ه يُنوجد كمّ الصّبر. من أي سـماء سـقط؟ بـل رجلٌ مثله لا يسـقط، يجيء شـامخًا، مُمتلئًا بوجـود العالم وتمام الفضـاء. بطلٌ مُـراد. ورجل حقّ. كذا الّذي يجتمـع بالكل ولا يختلط إلّا بنفسـه. جمال السّاعة وقضيّة العصر. يُماثل المُستحيل في عصر ما عاد يليق بالمُمكن. تتوسّـم فيه كل ما تبتغي دون أوهى تفكير. يتفرّد بنفسه في زمن على هذا الكمّ من المُنازلة. بفائض الشـهامة. عصيّ المُقاومة. أبيّ الإنقطاع. شـهيّ الذكاء. يتهنـدم برقّة ولباقة عاطفيّة. انبثـاق الأدب ووليد الحرف. صدمـة وقتيّة ووعكـة حياتيّة. اسـتبشرُ هناءً بوجوده. يخـرس الكون من لطافته ورقّته وعزّته. «أهلًا» بنبرة صوته تكون توقيع مُروره. أمره قدريٌّ. بُروزه حدثًا مُجلجلًا. اسـتثناء العالم. وصُدفة الزمن. مُتخارج عن تسلسل الزمن. توافقي الحاسـم بشـكلٍ أنيق. خيْرة الحياة المُنتقاة. كائن سـماوي، وميضٌ خالجني، واندلع بداخلي. نيران لا بُدَّ لها أن تكون. أنيس الدّرب، وفّر عنّي التّعب.

لم يعـد يسـترع انتباهـي شـيئًا في مدينة «نيـس» من ذي قبـل إلى الآن. سـيظلّ الشيء الوحيد الّذي في دواخلي، في هاته المدينة الخاوية، وببسـالة لم أعهدهـا. ولن يتوه من ذاكرتي ما حيّيت. مازلت أسـلتطفها لأنّي لاقيته فيهـا. سـتكون ذكرى مدينـة «نيس» ذكـراه. ذكرى أبديّـة لا تُنمحى من الذاكـرة. كما لو كان يحملُ شـبهًا من مجاهـل سرمديّة. وخاطرة الاقتراب من شـخص ما تخيفني أكثر. سـيظلّ زائري المُنتظر كلّـما رنّ جرس بيتي. وطريقي، طريق المستحيل إليه.

كان فرحتي وجلبتي إلى الحياة وهذا حسـبي أن أظلّ على انتظاري له. وكم من الخواطر المُرتابة تدحرني إلى يقين قدومه.

أستحضر أوّل لقاء كان بيننا.

كافحت، آنذاك، في قراءة قسمات وجهه. قرأتُ تعابير جاءت كالآتي:

«مـا هذا المُرتبك؟ يرتبك كطفل. طفل يرتدي ثياب راشـد، في محاولة منه أن يشعر بالآمان»

وعلى نحوٍ ما كان قد سـطع وميض وحس بالمسـؤوليّة تُجاهه منذ أوّل لقـاء. أصبحتُ دائم الرهبة من أن يطاله أدنى سـوء حـظ. أن يهب مثلًا، هـواء من شـأنه أن يضجر عينيه، أو أن تطمره السّـماء ويُصـاب بنزلة برد تُحيلـه وقتًـا على السّريـر. أو أن يُلقي أحدهم بكلمة تُلحق الأذى بنفسـه. سـأكونُ دعامتـه في الخفاء، بين نسـمات الهـواء. لن أكون وجوديًّـا، وإنّما بطريقة ما. سـحريّة، وفلسفيّة. سأكون صديق أعماقه ورفيق ذكرياته. إنّه

بلُغة الرسـائل وأبجديّة الوطن. ورفيق الفكر. رسـالة شهيّة الكتابة وألتذّ بقراءتها. كيـف لي أن أكسرَ غيابـه؟ لا أقتدر أن أفـرض عليه ما لا يهوى إتيانـه. تعثّري به عدلُ الأرض وعطيّة المُعاناة. صـوابي اليقيني وتصويبي الوحيـد. حبر التحوّلات ومُغيث الأزمات. مُرهمي وعقّاري. مُنهمك في دوامّة لا وقت لها. جبر الكُسور وشافي الشروخ. أنقى من لاقيت. تسرّب من مجال بصري وسُـجن في أغواري. أحببتُ رفقتنا وكل ما دار بيننا، بيْدَ أنّه لم يُدار بيننا باستثناء صمتنا. ومع ذلك فقد تمكّنا من ذلك فقط بصمتنا.

لم يُمهلنـي اللقـاء زمنًـا أطـول إلّا وحلّ محلّـه فراق سـيُفجعني مدى العُمـر. سـأرتدي أدباش الحداد عـلى فجيعة الفراق هذه. سـأبكي نفسي إلى أن ينشـف دمعي. سـأرتقبه ما بعد الصّبر نفادًا. وكلّي أمل أن يُلملمنا قـدر ما. أنا لا أخاف عليه من شُرور دُنيانا فحسـب، أرتعب عليه من ألّا يُبـصر فيه أحدهم جمالًا مثل الّذي رأيته وأكنّه له. أخشـى ألّا أكون هُناكَ مـن أجلـه وتلقّي الأذى بدلًا عنـه. إنّي على عهـدي ذاك. هنيئًا للدهر على عطيّـة الولاء تلك. قلّما يوفي البشر بالّذي عاهدوه. الوفاء نُدرة الزّمن. لو تظافرت عليّ قوى الشرّ نُدرة زماني تظلّ له، باهرة.

فلا شيء عاد يهمّني. ظننتُ فخاب ظنّي. وهل للظنون مسعى باستثناء الخيبـة؟ فـلا شيء عاد يهمّنـي في نفسي. عُدتُ كما كنـتُ قبل ملاقاته، لن أعنى بنفسي بعد الآن. فليعود جسدي إلى النزيف، فلا شيء عاد يهمّني في نفسي، أن ينزف جسدي وأنتهي، أليق من أن ينزف قلبي على مدار حياتي

بأسهم الضاحكة النّازفة. انتظرته بعقلي ونفسي ويا لهول المهزلة بروحي.

كسرني هذا الفقد. واستنزف الفِراق طاقة تجشّمي.

أثمّةَ جريمة حياتيّة أعتى ممّا حدث؟ يا للقلب المهدور بين فكيّ فجيعة الرحيل. هواه وثّق قلبي، لذا لن يكون بعدَه بَعْدُ. كُلُّه كون مُجرّد من الدحض.

غدَتْ ذاكرتي مرمدة الأيّام، أمّا عن ذكراه فهي مطفأة للفافة حياتي. لم أعد أعي صنيع الحياة كما ترقّبي. التخمين فيه فوري ومؤلم..كانتظاري.

لا أريد أن أكون وحدي رفقة عقلي.

تعوّد أن لا تتعوّد على أحد مَا،

فذات يوم ستنتزع الأيّام منك مَا اعتدت عليه

نجيب محفوظ

(19)

الأشهر القليلة التّالية، بعد رحيل السّاعاتي، كانت ثقيلة بحُزنها المُطبّق والتّعاريج مُلتهبة بشوق الصّداقة. أهرمني بُعاده. أضناني ميعادنا الّذي لم يأتِ. كُنّا نتكاتب من شهر إلى آخر، أخبرني أنّ حياته أصبحت أفضل بكثير، عاد إلى صُنع السّاعات، وإلى زوجته. تكشّفت لي نُقطة ضُعف أُخرى تنخر عصبُوناتي وهي التعوّد، الأمر الّذي يُخيف قلبي.

تحت وقع الصّدمة، راسلته أنا الأخر قائلًا له أنّ ذاك الّذي يُغمغم على الدّوام أنا لم أعد أتحمّل هذا، وبقسوة غير منتظرة قد شنق نفسه. عثرت عليه امرأة التنظيف وكانت جُثّته مُدلاة من ناحية إلى أُخرى. فُتح شرخ بعقلي وكان تأنيب الضمير يُرغي من رأسي. التهمني النّدم بشكلٍ مُميت، لا يُوصف. ما كان ينبغي أن أهزأ من أفعاله. لقد كان محقًّا تمامًا، لقد سئم من كلّ شيء. ركضت في الممشى -الّذي فيه الأشجار من ذات اليمين وذات الشمال- ضاجًّا كقنبلة موقوتة: «أنا لم أعد أتحمّل هذا» لا أقصدُ مكانًا مُحدّدًا وأشعر بإكتئاب يخطفني إلى أماكن غير مُؤكّدة من هذا العالم. إنّ العالم مكان سيئ. أسوأ ممّا كُنتُ أتخيّله، حتّى في المصحّة.

لم أتمكّـن مـن القيام بـأي شيء في الأيّـام المُتتالية سـوى التضاحك في الزّوايا المُعتمة على نحوٍ هسـتيري. بجُهود بائسة لتناسي ما حدث. اضطرّ الطّبيب «توماس» إلى حقني لتهدئة الاضطراب الّذي يُمزّق صدري.

بعد مضي شـهر بالتّمام والكَمال، جاءتني برقيّة أخرى. تدفّقت كلمات مُشتعلة من الرسالة كبُركان يصبّ الحمم.

«سـوف أُحيطـك بخـبرًا لا ريـب في أنّه سـيُرضيك كثيرًا، ثمّة شـقة في فيلفرانـش، في المبنـى الّذي أقطن فيه، سـتفرغ عمّا قريـب، خمّنت بيني وبـين نفـسي أن تنتقل للعيش فيها. سـتكون لكَ عائلـة تعنى بك. عاجل بالشّفاء.»

قُلـت لـ«السّـاعاتي» أنّي لا أُريـد أن أسـمع ضجيـج السـيّارات، ولا أصـوات النّاس، لديّ الكثير من الألم في رأسي وهُناك الكثير من النّاس في الخارج. لا أسـتطيع العيش في مدينة بعد الآن. الحياة هنا انتهت. كل يوم هو نهاية العالم بالنّسـبة لي. أنا مُتعب للغايـة، وليس لديّ المزيد من الطّاقة للاستمرار. كلّ عام أسوأ من الآخر. ما هذا القرف؟ أنا لا آكل، ولا أنام، ولا أخرج. الجميع يضحكون، ويقضون عطلة جميلة.

ومع مـرور الأيّام حلّ الصّمت من حولي. أظلـم عقلي. أثارت كلماته في دواخلي عواصف مُتداخلة. ظننتني أعود إلى حالة من التكدّر، إلى أتُون الضّياع ثانية.

وأنا إنسان يُصدّق ظنّه ولكن ما الّذي يدفعني للظن؟

سـأكون كاذبًـا إذا قُلـت إنّني لا أُريد أن أضع نفـسي في أحضان العالم الخارجـي المُقلـق مـن جديـد. كان ينبغـي أن أجتـاز هذا الجـدار القاسي والكثيـف مـن تراكـمات الصّدمات، وأن أكـسر هذا الصمـت الرهيب، وأن أقبـل بعـرض الطّبيـب «تومـاس» الّذي يُرعبنـي وأن أفتـح له قلبي فتحًا كاملًا وأن أُواجه كي أُبلسم خُروقي النّازفة. وأن أنعتق من المُكعّب الضيّق الّذي سُجنت فيه. وربّما أشهد تحوّلًا جديدًا في عقلي.

قُلتُ في نفسي، إلى متى سأظلّ هامدًا؟ كلّما تقدّم العُمر بي يزداد ضباب ذاكـرتي. أنا مُجهد. تعبت من التعرّض للأذى مرّة أُخرى. بعض الأشـياء الجميلة ليس مُقدّرًا لي أن أراها. ضقتُ ذرعًا من الشـعور بالخوف طوال الوقت. تعبتُ من أكون على الطريق الخاطئ أبدًا. اكتفيتُ من منح فُرص زائفة ووُعود مُتأرجحة.

وقررت ذلك.

مضموم الذراعين، جلست في مُواجهة الطبيب «توماس» وقُلت:

«افعل برأسي ما تشاء»

«سيكون كلّ شيء على خيرُ ما يُأمل»

أنا

عن نفسي

اليوم

ارتميت على عتبة الذاكرة أستجدي

هُناك
كالعادة
عقلي يلطمني
أبكي فُراقي
هُناك
ومن فوق
تقترب سمائي
ولن ألتمس عليائي
هُناك
ومن فوق
تسيح سمائي
ومن تحت
أنغمس في مكاني
تغزوني الحُكلة في مكاني
أستقطب منيّتي
أجترّ ذاكرتي
وأنا
عن نفسي
دُون نفسي
أعود إلى نفسي

مهما كان كتاب ما حزينًا، فإنه لن يبلغ قط درجة حزن الحياة

أغوتا كريستوف

(20)

شرح لي «توماس» عملية التنويم المغناطيسي ونصحني بارتداء ملابس مريحة. ولكي أتحرّر من صدامي ينبغي أن أكون مُتأهّبًا لتحرير نفسي من التنويم المغناطيسي بمفردي وليس بمعيّته. لأوّل مرّة، تولّد بأعماقي استحكام قرار حياتي. كدت أبكي لا فرحًا ولا غُبنًا، لكنّني كدت أبكي من أجل لا شيء. كانت السّماء جاهزة للمَساء. وكان الأفق يظلم من غُمرة الكآبة. وكان الهواء سميكًا مع ظلام الذاكرة. جعلني الطبيب «توماس» في حالة تشبه النّوم العميق من أجل تعزيز التركيز. شعرتُ بالهدوء والاسترخاء كأنّما ذراع ساحر تشدّني. في بيت رحب وقاتم، وجدت نفسي مثل مقامر أمام ثلاثة أبواب يجب أن أفتح أحدهما. بدأتُ أُسبرُ جُغرافيّة أعماقي.

وقفت أمام الباب الأوّل الّذي يُشبه فوهة غول شرّير. الرعب المُهلك يهزُّني.

أنتفض كمن ترامى عليّ خيطٌ مُكهرَب. وكانت صرخة أمّي مُرعبة ومريرة وقاسية. الخوف ما لبث ان استفاق مرّة أُخرى.

كانت الكلمات ترشحُ من مسام الظلال. «أتركني»

شيئًا فشيئًا، يزداد صياحها وتنفقع كفقاقيع مُفرقعة:

«إليكَ عنّي»

خُطى ثقيلة تأتي. باب غرفتها ينفرج على مصرعيه. انزلقتُ بأسرع من غمض العين. ففوجئت بملابس والدتي مُترهّلة وشعرها مُبعثر وحالتها سّيئة، وكحل العين كان يجري على خدّيها وشفتاها ملطّختان بالأحمر. في صقيع العتمة استحكمت بها عاصفة من الضيق. اندفع أبي واندفعت معه رائحة الشّراب. شدّها من شعرها أمّام الصغير الّذي كُنته. صفعته أمّي وكان تفكيرها مُختصرًا يدسُّ بها في كلّ الثقوب المُظلمة المرجوّة. احتمت بي. في سابقة جديدة لا عهد لي بها أشعر أنّي متعهّد في هذا البيت، بيد أنّي لم أتجاوز العاشرة بعدُ.

«ألُذتِ بابنكِ الخنوع»

تنهال كلماته. ينقبض قلبي. رغبت لحظتئذٍ أن أدسّ رأسي في أيّ مكان خشية أن تلقطتني مخالب كلماته.

«**Viens dans mes bras mon amour**»

تغمرني موجة من الكآبة المُفرطة والمُهلكة للذّات وما من أب ينطق بهذا القولِ إلاّ إذا كان مريضًا

كان والدي يتعثّر بحماقة مُصطنعة ويتحدّث بأسلوب لا أخلاقي مع والدتي:

«أنتنّ النّساء ترغبنّ بالشّيء حتّى وأنتنّ على فراش الموت»

الدم يهرب من وجهي المُنتفخ ويقول الصغير بسُأم:

«عد إلى غرفتك»

«أنّـى لـكَ رأي أيّها الخضوع وماذا تفهم مـن الرجولة لتقف في طريق رجولتي»

يسـقط بيـده نحوي ويصفعنـي لأبتعد عـن طريقـه، فتعانقني والدتي وتقبّلنـي وتطلـب منّي الهرب إلى غُرفتي. مخالبٌ شرسـة تلتقي أعيننا على الحدّ الفاصل للكلمة. أعوذ بغرفتها دون أن أدرك ذلك واختبأت في خزانة ملابسـها. ألاحظ همسـات شرسـة وآهات بذيئة، ورائحة النذالة تداعب أنفاسي الصافية، فتلوثت. لكنّ المرارة كانت مستبّدة هذه الليلة. أمطرها بالقبلات يسرح كالثعابين وألصقها بالحائط. اعترته ثورة شبقيّة. سلّمت له أمّي جسدها مطلقة الذّراعين والفم. وهذا الفم لم يبقَ على ما هو عليه. وإنّما سرعان ما نال نصيبه من القبلات العجولة واللاّذعة. كشّر لها بأنيابه المعقوفـة. واللّهب يكويه. يقدحها بسـياطه المحمـوم. انفجرت الأحقاد من الأعماق. وشـعرتُ بدرجة سـامقة من والاشـمئزاز والكراهيّة. لكنّ هذا الشـعور لم يدم. اسـتبدل بشيء مظلم. غمرني الفراغ. أقمع الشـعور بالاشمئزاز الّذي سينفجر في داخلي من أنا؟ لم أبلغ العاشرة بعد.

وقفت أمام الباب الثاني الّذي كان أكثر قتامة. دواليب ناريّة تطحنني. مرض أبي بالسّرطان. ولزم الفراش في وقت لاحق. لم تهتم أمي بذلك

علـى الإطلاق. إنّهـا تبقى دائمًا خارج المنـزل. تعود في غضـون أيّام قليلة. تتـزيَّ بـزيّ الأمّ الحنـون والزّوجـة المثاليّة. ثـمّ تنشـغل بمكالماتها. وعلى نحـوٍ مفاجئ، تُغادرنا مسـعورة في محرقة مسـمومة. في هذا الجوّ الكئيب، باغتنـي التّعـب مرّة أُخرى. ظننـتُ أنّ التعب هجرني، لكنّـي كنتُ مُخطيًا في اعتقادي. كان التعب يكمن في أعماقي وينتظر اللحظة الحاسـمة. كنتُ مُنطرحًـا عـلى الأرض لا أقوى عـلى النّهوض. جاء إلى مسـامعي فحيحًا يرجو الإرتواء.

قال:

«ناولني كأسًا من الماء»

لم أستطع النّهوض لألبّي حاجته. كان تعبي إلى درجة لا تطاق.

قال ثانية:

«ناولني كأسًا من الماء»

ظـل يُردّد مـا يقوله إلى أن خمـد صوته. أدركت أنّه قد تـوفّى. مات أبي راجيًّا قطرة ماء.

غائـب الذهن امتثلتُ أمـام الباب الثالث وقد عاينـتُ المعمعة خلفه. كان قلبـي جـدارًا من الحجر ينهار في أبعادٍ أُخرى. أشـحتُ بوجهي وقد تغضّنت قسـماتي. تطفو الصرخـة واجمة، كان باب الكُليّة. أعرف مُسـبقًا

مـا فيـه. من بـين الذكـرى الأولى الّتي سـتظلّ تُلازمني. كنـتُ أرغب في تبديـل صيغـة الماضي، لكنّني لم أُرجع الزمن إلى الـوراء للقيام بذلك. بلغ حُزني ذراه، أُريد أن أنفجر. مشيت بعيدًا ووقفت أمام الأبواب. مسكون بالإرتعـاش كحِصـار. أفكاري وهواجـسي وبالتّالي شرارتي. وُجد فأسًـا على يسـاري. أخذته تلفّني زوبعة تُراب. وبدأت في سحقهم بقراري مثل سحابة مُدلهمة راعدة دون أن أئتمر بأوامر الطبيب.

كان الوقت سـاكنًا ينخر في الذاكرة وهّاجًا. تكوّمت في رأسي أرتجف مع دوي الرعد من كل شيء.

بعد أن عدُتُ إلى واقعي، قال الطبيب بصوت جاف:

«ستشعر بصدُاع ودُوار لأيّام. ستختفي هذه الأعراض»

لا تتوقّف الحياة بسبب بعض الصدمات،

فالوقت لا يتوقّف عندما تتعطّل السّاعة

خليل جبران

(21)

يتساقط الثلج في نيس كل عامين. تنزلق رقاقات الثلج في أحضان الحديقة. كان اسمي ضمن اللائحة، الّتي سيُقيّض لها مُغادرة هذا المكان، الّذي قضيتُ فيه ثلاثة سنوات ونصف. لم يعد العالم الخارجي أمارة ضياع. بل بوصلة لفرض نفسي. على الرغم من أنّ الأمر استغرق منّي أقل من أربع سنوات. لا شكّ في أنّ من كانوا في دُفعتي قد أكملوا درجة الماجستير، أو سجّلوا للحصول على الدكتوراه، أو تقلّدوا مناصب مهمّة، أو متزوّجين ولديهم أطفال. وأنا ما أزال في مكاني. وتلك الفتاة الشقراء، بلا شك، لم تعد تبكي، وقد حقّقت، نيابة عنّي، كل أحلامي. أمّا ما كان من أمر أولئك الإداريين بالكليّة، فلا ريب أنّهم مازالوا يلعبون لعبتهم الشرّيرة مع الطلبة الأثرياء. وأنا لم أكن سوى ضحيّة ظنّ الثراء. أحسبُ أنّ الطبيب «تيمور» يُواصل إفشاء الأسرار الطبيّة لمرضاه. أعتقد أيضًا أنّه ما زال لا يُدرك الألوان غير المُتناسقة لجواربه. كان يجب أن أخبره بذلك قبل أن نتشاجر. ما كان حظّي مُؤسفًا بكمّ ما كانت ممرّاتي حافلة بسفه الناسِ. خلّصت إلى التساؤل عن أمر تشيرنوبل. أكاد أُجزم أنّ المستوى غير الطبيعي من الإشعاع قد بدأ يُسبّب السرطان.

ناولتني «كاثرين» رقم هاتفها وطلبت منّي أن أبقى على اتّصال.

«سنتقابل بالخارج»

«سنشرب الشوكولاتة الإيطاليّة السَّاخنة في كافيه فيرجنانو»

شكرتها. تو ادعنا. جذبتُ نفسًا عميقًا وتحوّلتُ إلى الإتّجاه الآخر، أجرّ حقيبـة ثقيلة. قبل مجيئي إلى هنا كنتُ مفعـمًا باليقين. اليوم أُغادر–بصحّة مُحطّمة–وأنا مليء بالشك. قبل وصولي إلى محطة الترام أخذتُ نفسًا آخر. ولأنّنـي لم أكـن أملك أي قطعة من المال، أعطيـت فتاة ورقة نقديّة من فئة عشرة فرنك فرنسي واقتطعت لي بعملاتها النقديّة، تذكرة لعشر رحلات.

«هذا لُطفٌ منكِ»

«أعُدتَ توًّا من سفركَ»

«قضيتُ العطلة بالوطن»

نهرتني «كاثرين»–بأي شكلٍ من الأشكال–من التحدّث مع الآخرين عن كوني كنتُ في المستشـفى. لأنّهم سـيتجنّبونني كما لو كنتُ أحمل البقّ. ومع ذلك، لا خجل من المُعاناة الإنسانيّة.

كان مـن الصعب–بعـض الـشيء–أن أبحـث عـن الحيـاة، ثانية، بين الآخريـن، وأدخـل في علاقات من شـأنها أن تسـبّب لي الألم. فكـرة أنّني سـأنتهي على أعتاب الثلاثـين، عالقة في رأسي. وقتي ينفـد كرمل الزّمن. ليس لدي أيّام طويلة أخرى لأضيّعها في التأسّف، بعد الآن. رسخ ما قاله

لي الطبيـب في رأسي: «أي شيء أُريده مـن نفسي في الغد؟ أي شيء أتطلّع أن أكونـه؟ كل مـا حدث، لا يعدو كونه قد حـدث في الماضي. ولا يوجد في حاضركَ سوى بتذكير نفسكَ به. لستَ أنتَ من تستحضره من الماضي ولن تكون أنتَ نفسه غُداة غد. ثمّة استحداث يحدث لكَ وأنتَ عدّاد ما أنتَ عليه. عندما تنتهي من حيث بدأت يبدأ الموت.»

تقـول «مي زيـادة» بعد أن نالت نصيبها من الظلـم «أتمنّى أن يأتي بعد موتي من ينصفني» هل حقًّا سـيجيء بعـد موتنا من يُنصفنا؟ لأي شيء لم نكن نحن الّذين نُنصف من لم يُنصفهم أحد، الّذين سبقونا؟

أوقفني رجلٌ بلا مأوى. شعرتُ بالتعاطف معه. أعطيته بعض المال.

اسـتقليّت الـترام مُتّجهًا إلى مينـاء لمبيا ومن ثمّ البـاص إلى فيلفرانش. لا شـكّ أنّ السّـاعتي في ترقّبي. يصيخ السّمع إلى موج البحر وإلى حفيف الرّيـح. وكـوب من القهوة في ترقّـب وصولي كما أنتظر زمنـًا أضلّ ثنيّته. لا أحتـسي القهـوة غـير أنّه-حتمًا-يعدُّها من أجـلي يوميًّـا بتوقيت غبطة قُدومـي. بتوقيت الآن وغدًا وإلى الأبد. كنت سـعيدًا جدًا لأنّ صار لديّ عائلة جديدة. دأبتُ الجلوس وأقصُّ عليه كل شيء. أنا الغريب والمُضاع والطريد. يُدركُ أنّي دونه في ضياع وفي داخلي مزْقَ الشُعور. وفوقي سحابة تُمطـر. قـدري يصطرخ في صدري. أفتقده بحجـم أنّي أذوي في غيابه. كما أنّه لم يعد بإمكان العالم صنيع أيّما شيء حيالي، أضحيتُ مُسـتقرًّا الآن، كما

انتويـتُ أزلًا. صرتُ طليقًا إلى مكيال التحليق. لم يعُد ما يؤلمني باسـتثناء غيابه. كان كلّ ما فيه عدَا أنّه ليس جواري وغيابُه كالسيّاط يجلدني. دونه نالت من نفسي الشـيخوخة. غيرَ أنّي أراه دائـمًا يُطوّقني كهالة تُبدّدُ شُرور عالمنـا. كيف لا يكون معي وهـو نبضٌ يدوم. لم أفقده لأنّني أعرف أنّه إذا خسرته فسـوف أفقد نفسي، كما هو الحال معـه، لم يفقدني لأنّه إذا خسرني فسـوف يفقد هويّته. تمّ تشـخيصي بمرض يستعصي على العلاج ألّا وهو الغيـاب ولن ألتمس الشـفاء إلّا بحضوره. أحـد مضاعفات هذا المرض هـو نزيف الذاكـرة الدوري، أي أنّني على أعتاب المـوت. قرعت الباب قرعًا خفيفًا. يخفق قلبي خفقان الذبيح. كُنتُ على أُهبة الإسـتعداد لأغفر لـه كل مواقيت غيابه. أخذتـه على محمل الوحيد، عائلتـي. الانتظار لون مـن ألوان الوفاء. ومـن أعمق أعماقي كُنتُ مُتيقّـن إلى أبعد حُدود اليقين من أنّ هذا الأمر برمّته سـيحدث. سأجد عائلة تُحبّني. نشأت صداقتنا في صنـدوق الحُطام، لذلك لا يوجد شيء في قدرته على وصف فرحة العثور أحدنـا عـلى الأخر وما وُلـدَ من الحطام هـو صدق الحياة الموعـود إتيانها. أخيرًا، كان السَّـاعاتي. لوقع التوقّع لا بُدّ للقاء الخِتامي أن يكون. ما بيننا حريـق يتـضرَّم، أبـدًا لا يخفت تأجّجـه. أعلنتُ عليه أبديّتـي كما يجب أن يجلب الكاتب الخلود. كان بشـحمه ولحمـه وقامته الرفيعة ينظُرني. كِلانا مُخضّبٌ بالدموع. نقلتُ له أنّ ليس للفِراق مكانًا بيننا وإن وضُعت رأسي تحت المقصلة. لا أحد يستطيع فكاكنا كوننا نُريد أن نكون سويًّا. لا شيء من شـأنه أن يحيل ما بيننا. لا مُوفى لقصّتنا وسـيحتفظ أحدنا بالأخر بها لا

يُقاس وإلى الأبد. الصداقة فُقدان التخلّي وفعل تمسّـك. الصداقة أصعب اختبـارات الحيـاة، وأنـا عـن نفسي أقـرّ أنّي أخفقـتُ في اختبـارات الحياة باسـتثناء إختبـار الصداقـة، أيّ إلّاه. دنا منّـي على ضخامتـه. دنوتُ منه بنفس المقدار. وفي صمت أطبقتُ عليه صدري. جعلنا من نفسـينا نفسًا. خامرني شعور حاسم أنّه سيعود ولن يُغادرني تحتَ أي ظرف. أنا لم أرجو منه شيئًا سوى أن يكون حضوره دائمًا وأبديًّا. أراه كما لو أنّي لا أرى أحدًا في العالم. وذلك كلّه يُشعرني بحقيقة وجودي أكثر ممّا كنتُ أنا. به عرفتُ نفـسي. فلا شيء من شـأنه على مقدرة مـن حجبه عنّي. ولأنّي شـيّدتُ ما بيننـا عـلى أركان الولاء والإخلاص والأمانة فـلا شيء يهزّ ما بنيته. ولأنّي أتيتُ من منه، أنا جليسـه. وكوني وليدُ أيّامه، أنا رفيقه، وبما إنّي لامسـتُ أغـواره فأنا روحه الأخرى ولأنّي من صُلبه فأنا إبنه الحق. هدوء لم أشـعر به طيلة حياتي، أنني في بيئة صحية تؤويني. وعائلة بها عرفت عِوضي. كل ما عشته في الماضي لا يُعد عن كونه قد حدث في الماضي.

أنهيت مسودّتي الأولى في أكتوبر 2016

كُتِبت الرواية في:

مساكن: تونس

نيس: فرنسا / 2020

ياسين الغماري

السّاعاتي

بلغةٍ مدهشة يصطحبنا الروائي التونسي الشاب ياسين الغماري إلى عوالمِ سرديةٍ شاسعة، حيث يتجلى أسلوبه السردي المذهل في استحضار الأحداث و الشخصيات برشاقة و سلاسة،تدفع القارئ إلى اللحاق بالتفاصيل لسبر أغوار خفايا روايته التي وصفها بالخيالية. يذهب ياسين الغماري بعيداً إلى آخر معاقل الساعاتي صانع الزمن مروراً بإشارات اللغة الفاتنة و عنصر التشويق الذي يصاحب أحداث الرواية من البداية حتى النهاية ليرسم بطريقته الخاصة مسارات سردية مشوقة و فضاءات متعددة في عالم الرواية.

الناشر







